كيت موس

الجبل الأسود

ترجمة رشا صلاح الدخاخني




تليجرام : هنا سور الأزبكية
أكبر مكتبة رقمية

الجبل الأسود

تأليف
كيت موس

ترجمة
رشا صلاح الدخاخني

مراجعة
هاني فتحي سليمان





الجبل الأسود

كيت موس

The Black Mountain

Kate Mosse



الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٧٦٣ ٣

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠٢٢.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٥.

المحتويات


تليجرام : هنا سور الأزبكية

إلى أعزائي جريج ومارثا وفيليكس



شكر وتقدير

أود أن أشكر كلَّ مَن ساهم في خروج هذه الرواية إلى النور، ولا سيما الرائعتين فاني بليك وماريا ريجت وجميع العامِلين في دار نشر بان ماكميلان، من بينهم أليس جراي وسامانثا فليتشر وماريان ريد وليز كوين. وأتوجَّه أيضًا بجزيل الشكر إلى وكيل أعمالي مارك لوكاس من وكالة سوهو، بالإضافة إلى نيامه أوجرادي وأليس سوندرز، وجميع العامِلين في وكالة ذا ريدينج إيجينسي، وجميع المُعلمين وأمناء المكتبات وبائعي الكتب وموظفي الدعم الذين يحرصون على أن يصِل كل كتابٍ في برنامج كويك ريدز إلى قرائه.

الإثنين، ٣ مايو ١٧٠٦

قبل يومَين

الفصل الأول

نظرت آنا إلى القبر المفتوح. وأخذ الغضب يتأجَّج في صدرها، وكأنه نار لاهبة بحُمرتها، حامية في حرارتها، ولكنها لن تذرف الدمع على أية حال. غرست أصابعها في راحة يدَيها حتى سكتَ عنها الغضب. منَحَها الشعور بالألم فرصةً كي يصفو ذهنها.

كان تابوتًا عاديًّا، مصنوعًا من خشب الأشجار التي تُغطِّي المنحدرات السفلية للجبل. امتلأ هذا الجزء الشمالي من جزيرة تينيريفي — حيث كانوا يعيشون بالقُرب من الجبل الأسود — بغابات الصنوبر وبساتين الأرز. كان عالَمًا تكسوه الخضرة، مليئًا بأشجار العنب. أما الجزء الجنوبي من جزيرة تينيريفي فكان طقسه جافًّا وأرضه جدباء، أو هذا ما سمعَتْه آنا. فثمَّة عدد قليل من الأشجار ينمو ولا يكاد المطر يتساقط أبدًا في هذا الجزء. يومًا ما، ستذهب آنا إلى هناك وتتحقَّق من الأمر بنفسها.

كانت هذه فترة ما بعد الظهيرة من أحد الأيام الباردة في أوائل مايو. تلبَّدت السماء بالغيوم، وهي الأجواء المناسبة تمامًا لإقامة مراسم جنازة — باستثناء، طبعًا، أنه لم يُقَم فيها قدَّاس على روح الميت من الأساس. فلا يجوز دفن رجل منتحر في أرض مقدسة. «تلك خطيئة مهلكة»، هكذا أخبرها القس. كان القس ذا وجهٍ نحيل حادِّ الملامح، تفوح منه أنفاس كريهة، وينسدل على كتفَيه شعر دُهني طويل. تعلَّمَت جميع فتيات البلدة تجنُّبه.

بدلًا من ذلك، جاءت آنا، وأُمها وأخواها إلى هنا — إلى هذه البقعة من قطعة الأرض الصغيرة التي يمتلكونها — من أجل دفن والدِهم تحت أشجار كروم العنب. كانت هذه الأسرة هي الوحيدة التي تتكسَّب قوت يومِها من زراعة العنب وصناعة النبيذ، مثلها في ذلك فرد أو اثنان من المزارِعين.

ارتجفت آنا وانتابها شعور مُفاجئ بالبرودة. ظلَّت واقفةً بلا حراك لفترة طويلة جدًّا. نظرت حولها. لقد رحل الجميع، حتى أُمها التي تُواري وجهها وراء وشاحٍ أسود من الدانتيل. لقد شعرت آنا بأحدهم يلمس كتفها لدى مغادرة الآخرين. لم تكُن تعلم ما إذا كانت هذه لفتةَ دعمٍ أم شفقة. ولم يبقَ في المكان سوى الرجل الذي تقاضى أجرًا نظير حفره القبر بلا شاهد يعلوه. وقف متكئًا على مجرفته على بُعد خطوات قليلة منها، كان ينتظر رحيلها حتى يتمكَّن من إنهاء المهمة.

نظرت آنا إلى أسفل مرةً أخرى. كان أحدهم قد نحت اسم والدها على الصندوق؛ توماس بيريز. لا شيء آخَر. لم يكُن هذا كافيًا ليُعبِّر عن حياة.

تمتمت بالإسبانية قائلة: «آسفة.» ثم أشارت آنا إشارة الصليب على نفسها، ووضعت هديتها — وهي عبارة عن باقة من الزهور البرية البيضاء والأرجوانية — على غطاء التابوت. تبع ذلك صوت مكتوم خافِت، ثم انفك الشريط لتتبعثر الزهور إثر ذلك.

قالت: «ارقد في سلام يا أبي،» ثم أومأت برأسها إلى حفَّار القبور.

بينما ابتعدت آنا، وهي تُجرجر خُطاها بتنُّورتها الطويلة لتكنس الغبار، سمعت صوتَ التراب ينهال على التابوت، ليُواري رفات والدها في تلك البقعة من الأرض التي هام بها حبًّا.

الفصل الثاني

سارت آنا عبر صفوف أشجار الكروم، التي تضرب بجذورها الطويلة المتشابكة في الأرض، إلى الطريق المؤدِّي إلى منزلهم. أخذ رأسها يعجُّ بالأفكار المضطربة.

كان قد عُثر على والدها في أرضٍ جرداء خالية من الأشجار بمكانٍ عالٍ فوق الجبل. وعُثر إلى جواره على حقيبتِه الجلدية ونظارته الطبية. كانت بندقيتُه موضوعةً بين ركبتَيه. ويبدو أنه ضغطَ على الزناد بواسطة خيط رفيع، وقتل نفسَه إثر ذلك.

عجزت آنا عن قَبول هذه الفكرة. كانت على عِلمٍ بأنهم مدينون بالمال. ولكنها لم تُصدق أن والدها كان ليتخلى عن زوجته وأبنائه. فلدَيها شقيقان توءمان في سنِّ الحادية عشرة فحسب. كانا فتيَين صالِحَين، وإن اتَّسما بالكسل. كانا بحاجةٍ إلى والدهما. الأهم من ذلك كله، أنها لم تكُن تتخيَّل أنه كان ليتركها لتعول الأسرة بمفردها. كان السبب الوحيد الذي جعلهم يستمرون في زراعة العنب في قطعة الأرض الصغيرة الخاصة بهم أنها كانت تعمل بكدٍّ إلى جانبه.

تمتمت بنبرة حُزن كغُصَّة في حلقها: «أبي ...»

ابتلعت ريقَها بصعوبة. فعندما بلغهم خبر وفاة والدها قبل أسبوعٍ مضى، انهارت والدتُها. ووقع على عاتق آنا مهمة التعرف على جثته وجمع أغراضه. رأت الدم على يدَيه وصدره. ورأت العلامة الحمراء على إصبع سبابة يدِه اليُمنى حيث ربط الخيط بإحكام. لكن عندما رأت محجر عينِه — حيث كانت عينُه اليمنى — فارغًا، تقيَّأت آنا على الأرضية في المجلس البلدي.

جعلتها تلك الفكرة تحترق من شعورها بالخِزي. لم يكن عمدة البلدة بالشخص اللطيف. كان شقيق قس البلدة وكاثوليكيًّا مُتشددًا. انتقد والدها بوضوح شديد؛ إذ رأى أنه اختار أن يسلك طريق الجبناء.

فجأةً، شعرت آنا بالدوار. لم تكُن قد تناولت شيئًا طَوال اليوم، سوى قطعةٍ من الخبز الجافِّ وكأس صغيرة من النبيذ اللذيذ. ربما كان هذا هو السبب وراء شعورها بالدوار. كانت نسبة الرطوبة في الجو مرتفعةً جدًّا. فالهواء ساكن وثقيل. ربما كان هذا يُنذر بقدوم عاصفة، رغم نُدرة العواصف في هذا الوقت من العام.

خلعت آنا قُبعتها المصنوعة من القش. مثل جميع نساء الجزيرة، كانت تُفرق شعرها من المنتصف وتعقصه على شكل كعكةٍ عند مؤخرة عنقها. ثم كانت تسدل شَعرها الأسود الناعم الطويل. قبل قليلٍ كانت تشعر ببرودة، أما الآن فتشعر بحَرٍّ شديد. وعندما مسحت يدَيها الرطبتَين بطرف تنورتها التحتية، رأت الشريط الأحمر عند حافة الثوب قد تدلَّى. تنهَّدَت إذ أدركت أنها ستضطر لإصلاحه في وقتٍ لاحق. وها هي مهمة أخرى تضاف إلى قائمتها المتزايدة.

كانت آنا في منتصف الطريق إلى المنزل، لكنها شعرت بالإجهاد. فجلست على صخرةٍ ونظرت جهة الشمال، أسفل الوادي باتجاه البلدة. وعلى الرغم من كآبة الأجواء في فترة ما بعد الظهيرة، تناثرت الألوان في كل مكان. في العادة، كان شهر مايو هو الوقت الذي تُفضِّله آنا خلال العام. راقتها رؤية الصفوف الأولى من العنب الأرجواني والأخضر تتدلَّى من الكرمة. أحبَّت جميع أنواع الزهور البرية التي تنمو على منحدرات الجبل الأسود؛ نبات الرتم الأصفر، وزهور المنثور الوردية والبيضاء. وأحبَّت كذلك النباتات الطويلة الحمراء التي تتلألأ كأحجار الياقوت. أحبَّت أشجار دم الأخوَين وأشجار النخيل المُتمايلة مع النسيم، وأشجار الصنوبر والأرز.

أما اليوم فكل شيءٍ بدا مختلفًا.

تركت عينَيها تُركزان على المحيط الأطلنطي. ومن هذا الارتفاع، كان المنظر يشغل نطاقًا واسعًا لدرجة أنها كان بمقدورها أن ترى أن خطَّ الأفق لم يكُن مستقيمًا وإنما كان منحنيًا. كان سُمكه يزداد عند المنتصف ويقل عند الحواف. كان البحر عاتيًا في فصل الشتاء؛ إذ تلاطمت أمواجه على الصخور. أما اليوم فكانت المياه ساكنة.

كان مسقط رأسها يُعَد أهم ميناء في تينيريفي، حيث تُستقبل السفن التجارية من مختلف أقطار العالم. أتت هذه السفن محمَّلة بالسُّكَّر وأصباغ الأقمشة وغادرت محملةً

بالنبيذ الشهير. كانت جزر الكناري ترسل النبيذ إلى مختلف أنحاء العالم. ولذا كان هذا ميناءً مهمًّا وغنيًّا.

عرفت آنا أن الصيادين من شأنهم أن يعكفوا على إصلاح شباكهم في هذا الوقت من اليوم. أما زوجاتهم فكان من شأنهن أن يُدخِّنَّ الأعشاب البحرية ويُنظفن أحشاء السمك. كان الميناء هو المكان الذي غالبًا ما تجِد فيه أخوَيها التوءمَين — بابلو وكارلوس — يُراقبان السفن بأشرعتها الباسقة في السماء. كانا يحلمان بقضاء حياتهما في عرض البحر، لا في حراثة الأرض. وكان كل حديثهما يدور حول حبال الصواري والأشرعة، وعن البلدان الموجودة على الجانب البعيد من العالَم.

من تلك النقطة، استطاعت آنا رؤية الأبنية البيضاء المتناثِرة في أرجاء البلدة والبرج العالي المُستدق لكنيسة القديسة آنا. كان والداها قد سمَّيَاها على اسم القديسة آنا — تيمُّنًا بالقديسة الشفيعة للأمهات — امتنانًا منهما لإنجابهما أخيرًا طفلةً قُدِّر لها أن تعيش. فقبل ولادة آنا، كانا قد حصلا على أربعة أطفال وُلِدوا ميِّتين أو عاشوا بضع ساعات فقط بعد الولادة. وتُوفي اثنان آخَران بعدها، ثم جاء التوءمان. كانت تفكر فيهم كثيرًا، هؤلاء الإخوة والأخوات الأموات الذين لم تتعرف إليهم مطلقًا.

يا لها من أشباح كثيرة جدًّا!

اتخذت آنا من قُبعتها مروحةً تروِّح بها على نفسها، رغم أن هذا لم يُحدِث أي فارق. سادت فترةَ ما بعد الظهيرة أجواءٌ غريبة، وكأن شيئًا ما على وشك الحدوث، وتصاعدت رائحة غريبة. أخذت تتشمَّم الهواء. كانت الرائحة أشبَهَ برائحة بيضٍ فاسد.

كانت أفكارها مشوَّشة ومشاعرها مُضطرِبة. انتظرت حتى تنتهي مراسم الدفن، ولكن حينذاك لم يكُن هناك عُذر. تعيَّن عليها أن تُقرِّر ما الذي ستفعله إن كان هناك أي شيءٍ بيدِها على الإطلاق. لقد شعرت، وهي تقف بجوار قبر والدها، أنها يمكن أن تتحدَّى العالم وتنتصر عليه. أما الآن، فهي ليست متأكدة من ذلك.

ليتها تتأكد فحسب.

دسَّت آنا يدها في جيب تنورتها الصوفية المخطَّطة. وبداخله كانت الرسالة التي تركها والدها صبيحة يومِه الأخير. وضع رسالته في منتصف رفِّ المدفأة فوق النيران، بحيث لا يمكن تجاهلها. أخرجَتْ آنا الرسالة من جيبها. وقرأتها عدة مرات، حتى حفظتها عن ظهر قلب.

هذه المرة، رأت شيئًا جديدًا. الدليل الذي كانت تبحث عنه.

أخذَت نفَسًا عميقًا، ثم قرأت الكلمات مرة أخيرة. فارتسمت على وجهها ابتسامة مُتجهمة. أدركت آنا الأمر. كانت محقَّة منذ البداية. فرسالة والدها كانت مخبوءةً في مكان يسهل الوصول إليه. والرسالة عبارة عن اسم. مرَّرَت إصبعها على الأحرف الستة.

ثم زفرت آنا.

من وجهة نظر أصحاب الأمر والنهي في البلدة — بملابسهم التي تنم عن الثراء، والشعر المستعار الناعم، والعصي ذات الأطراف الفضية — كانت هذه الرسالة دليلًا آخَر على أن والدها كان ينوي الانتحار. كانت دليلًا على أن موته لم يكُن حادثة صيد. لقد جاء هؤلاء الحكام من إسبانيا، وليسوا سُكانًا أصليين من داخل الجزيرة، وأُرسلوا إلى هنا من أجل السيطرة على نشاط التجارة. وقضوا بأن والدها سلك طريق الجبناء.

لم تكُن آنا تُصدِّق أن وفاة والدها كانت حادثة أيضًا.

وإنما هي جريمة قتل.

الفصل الثالث

اغرورقت عينا آنا بالدموع.

لقد مات والدها العزيز، وها هي جثته مُمدَّدة في الأرض الباردة. وحتى تلك اللحظة، لم تُطلِق آنا لنَفْسها العنان لتبكي. حينذاك، أدركت أنه لم يتركهم بإرادتِه الحرة، وهذا يعني بطريقةٍ ما أو بأخرى أنها قد تترك لدموعها العنان لتبكي.

هزَّت آنا رأسها. وكأنها تقول لنفسها كلَّا، ليس الآن. كان يتعيَّن عليها أن تبقى قوية.

مسحَتْ عينَيها بظهر يدِها، ثم هبَّت واقفة. انتابها شعور بالخوف؛ إلا أن شعورها بالغضب غلب عليها أكثر. فإذا كانت مُحقة بشأن الرسالة التي تركها والدها، فهذا يعني أنه يتعيَّن عليها أن تتوخَّى الحذر. كان أعداؤه رجالًا أُولِي قوة وبأس. فإذا عرفوا أن آنا كشفت ما اقترفته أيديهم، فإنهم سيُسكتونها لا محالة. كان الأمر ينطوي على مخاطر كبيرة. ومن شأنها أن تعرِّض حياة والدتها وشقيقَيْها للخطر أيضًا.

أدركت آنا أن فترة ما بعد الظهيرة على وشك الانقضاء من الطريقة التي تساقطت بها الظلال على سفح الجبل. كانت تعرف أنها ينبغي أن تعود إلى منزلهم الأبيض ذي المَصارع الخشبية البُنية والشرفة الأمامية، الموجود عند طرف المنحدر. وكان من شأن والدتها أن تقلق عليها وقد صارت آنا مسئولةً عنها الآن. ولكن تعيَّن على آنا أن تذهب إلى مكانٍ ما أولًا. لم يكُن هذا المكان بعيدًا.

عادت أدراجها إلى أعلى منحدرات الجبل الأسود، وهي مُمسكة بقُبعتها في يدها. كانت التربة خصبة لزراعة العنب بالنظر إلى أنها تكوَّنَت من الصخور البركانية قبل آلاف السنين. ولذا، تُنتج نبيذًا بنكهةٍ قوية ومُميزة.

ومن على مسافةٍ كبيرة، نحو الجنوب البعيد جدًّا، كان في مقدور آنا أن ترى القمة البيضاء لأكبر بركانٍ موجود في قلب تينيريفي. لم تذهب آنا مُطلقًا بعيدًا إلى هذا الحد جنوبًا. وحتى في شهر مايو، كانت الثلوج تُغطي قمَّته. قال البحارة إنه، عند الشروق وعند الغروب عندما تكون الشمس على ارتفاعٍ منخفض في السماء، يُلقي البركان ظلًّا على الجُزر الأخرى الموجودة على بُعد أميالٍ عديدة في عرض البحر.

زعم مَن عاشوا على الجزيرة قبل قدوم الإسبان أن عفريتًا كان يعيش بداخله. وعندما يغضب هذا العفريت، ينفُث نارًا وصخورًا في السماء.

كان والدُها قد حكى لهم الأسطورة عندما كانوا صغارًا. ولم تكُن الأسطورة متعلقةً بأكبر بركانٍ فقط، وإنما متعلقة أيضًا بجبلهم الأسود. كان التوءمان — بابلو وكارلوس — يسدَّان آذانهما، مُتظاهرَيْن بالخوف، إلا أن آنا كانت تُحِب القصة وتتوسَّل إلى والدها ليرويها مرةً تلوَ الأخرى.

وليلة تلوَ الأخرى، عندما كانت آنا طفلة صغيرة، كانت تجلس على الشرفة الخشبية في الجزء الخلفي من منزلهم تُراقِب الجبل الأسود. كادت تتمنَّى أن ترى العفريت يرعد وينفُث النار في السماء. عامًا تلوَ الآخَر، كانت تنتظِر، حتى أدركَتْ أنها مجرد قصة خيالية مختلقة يُخيفون بها الأطفال حتى لا يقتربوا كثيرًا من الفوهة. صحيح أن الأرض كانت ترتجُّ وتهتز في بعض الأحيان — وثمَّة حكايات عن ثوران النيران وتساقط الصخور في أجزاء أخرى من الجزيرة — لكن السماء فوق جبلهم الأسود لم تتحول إلى اللون الأحمر قط.

واصلَتْ آنا التسلُّق لأعلى. في ذلك الوقت، هبَّ نسيمٌ خفيف. استطاعَتْ سماعَه وهو يهمس بين العشب الطويل الذي ينمو فوق المنحدرات العُليا. تمايَلَ سياج القصب الأصفر والأبيض المصفر مع نسمات هواء فترة ما بعد الظهر.

أُنهِكَت ساقاها، ولكنها لم تتوقَّف عن السير. كانت آنا في سن السادسة عشرة طويلة القامة مقارنة بباقي النساء. كانت عريضة الجسد قوية المنكبَين. كانت تُشبه والدها وتفخر بذلك. لقد أحبَّت والدتها، ولكن الحُزن والفاجعة جعلا ماريا بيريز في حالةٍ من الهشاشة. لم يكُن من المُفترَض أن تكون زوجةً لمزارع. لم تتعافَ أبدًا من وفاة هذا العدد الكبير من الأطفال. كانت تمرض كثيرًا وتقضي مُعظم وقتها في الكنيسة، تُصلِّي للقديسين، أكثر من الوقت الذي تقضيه في الخارج مُستمتعةً بأشعة الشمس تغمر وجهها. أما آنا فكانت معتادةً على العمل في الحقول.

وصَلَت آنا إلى المكان. كان عبارة عن دربٍ ضيِّق شِبه مَخفي بين شجرتَين كبيرتَين من أشجار الرتم، وكانت زهورهما الصفراء تُشبه دفقةً من أشعة الشمس تسلَّلَت إلى المكان. ويُفضي هذا الدرب إلى المكان الأجرد حيث مات والدها. وصَلَت آنا إلى الموقع بعد وقوع الحادث فحسب. لم يكُن هناك شيء لتراه. على الأقل، لم يكُن هناك شيء يُنبِئ بقصةٍ مختلفة عمَّا رُوِيَت: رجل مات بيده، وبقعة دم باللون البُني الداكن تلطخ الصخور والأرض، وآثار حذائه على الغبار.

تملَّكَها شعور بالحزن والفقد.

ولكن على مدار أسبوع حتى ذلك الوقت، ظلَّ شيءٌ يؤرِّق عقل آنا. الآن، بعد أن قرأت رسالة والدها من منظور جديد، كانت تأمل أن ترى شيئًا هنا ربما تكون قد غفلت عنه من قبلُ. كانت آنا تأمُل أن تتحدَّث إليها روح والدها، فقط إذا أرهفت السمع بالقدْر الكافي.

الفصل الرابع

شعر بابلو وكارلوس بالملل. لقد أمرَتْهما آنا بالبقاء في المنزل. ولكن ما إن تأكَّدا من أن والدتهما تغطُّ في نومها حتى تسلَّلا خارج المنزل وانطلقا إلى الميناء. رأت آنا أنهما يقضيان وقتًا طويلًا في مُراقبة السفن بأشرعتها الطويلة؛ ولكنها لم تفهم السبب وراء ذلك. كل ما أراداه هو الذهاب إلى البحر.

جلس التوءمان، وكلاهما نسخة طِبق الأصل من الآخَر كحبَّات بازلاء في قرونها، على السور المُنخفِض بالقرب من الشاطئ. وهما يُؤرجِحان كِعابهما في مقابل السور، كانا يريان أيهما يستطيع قذف الحجارة إلى مسافة أبعد.

بدا الفتيان شديدَي الشَّبَه بوالدتهما. كانا ذا بِنية ضعيفة ووجهٍ شاحب، وشَعْر بُني طويل مُجعَّد يصل إلى كَتِفَيهما. كان الجميع يجد صعوبةً في تمييز أحدهما عن الآخَر. غير أن بابلو كان لدَيه ندبة صغيرة على الجزء الداخلي من مِعصمه الأيسر. فعندما كان بعُمر الست سنوات، أُصيبَت بَشْرَته بقطعة سلك شائك مُسنَّن عند محاولته سرقة التفَّاح من أحد البساتين. ونظرًا لأنه أكبر من توءمه بخمس دقائق، فقد كان دائمًا يتمتَّع بروح المُغامرة أكثر من أخيه. كان بابلو القائد وكارلوس التابع.

«أليس لدَيكما شاغل أكبر من قذف الحجارة في الماء؟»

نهض التوءم من على السور ليلُوح وجه الأرملة سيلفا من بين حبَّات الرمال السوداء أسفل منهما.

أردفت: «أنتما كبيران بما فيه الكفاية لتكونا أعقلَ من ذلك. أليس لدَيكما شيءٌ مُفيد لتفعلاه؟»

قطَّب كارلوس جبينَه. وقال: «ليس اليوم.»

لكزه بابلو في ضلوعه بمرفقه. تذكَّرَ كارلوس أنهما لم يُخبِرا أحدًا بدفن والدهما.

بادرها كارلوس بالسؤال: «كم عمرك؟»

كان كارلوس يَهاب الأرملة سيلفا دائمًا. كانت سيدة طويلة القامة وعريضة المنكبين. تُفرق شَعرها الرمادي من المنتصف وتعقصه على شكل كعكة؛ وتتسربل بالسواد من قمة رأسها إلى أخمص قدمَيها، باستثناء ياقة بيضاء صغيرة. وكان وشاح الأرملة مثبتًا بمشط في مكانٍ ما فوق رأسها وكتفَيها. وقد لفحت الشمس وجهها وحوَّلَته إلى السمرة وتقاطعَ على قسمات وجهها ألف خطٍّ وخط.

أجابته قائلة: «يجب أن تخجل من نفسك وأنت تطرح مثل هذا السؤال.»

احتقن وجه كارلوس. ورد عليها: «لكل امرئٍ عُمر.»

فأردفت: «الناس لا يُحبون أن يُسألوا عن أعمارهم.»

حجب بابلو الضوء عن عينَيه وحدَّق فيها.

سألها: «لِم لا؟»

مالت الأرملة سيلفا نحو الصبي لتُلقي بظِلٍّ على وجهه.

وقالت بهدوء: «لأنه يجعلهم يُفكِّرون في الموت. ولا أحد يروقُه ذلك.»

وعلى الرغم من أن الفتَيَين كانا صغيرَين وينعمان بصحة جيدة، ارتجف كلاهما.

قال بابلو في عجالة: «هيا بنا.» ثم جذب توءمه لينزلا من على السور، وركضا عَبْر الرمال السوداء نحو الميناء.

راقبتهما الأرملة سيلفا وهما يرحلان، مُتسائلةً في نفسها عن السبب الذي جعل توءمَي آل بيريز مُضطربَين للغاية.

نظرت من حولها، لكن لم يكُن ثمَّة علامة على وجود والدتهما في أي مكان. لم يكُن ذلك مفاجئًا. كانت إنسانة خوَّافة. نادرًا ما كانت ماريا بيريز تخرج من المنزل، وكان مقصدها الكنيسة فحسب. كانت تذهب للاعتراف بخطاياها أيام الجمعة وإلى القدَّاس أيام الأحد. لم تكُن تذهب أبدًا إلى الميناء.

وحتى قبل الاضطرابات الأخيرة التي واجهتها الأسرة، بدَت السيدة بيريز خائفةً من ظلها. فمنذ الاعتداء الذي وقع على مزارع الكروم الخاصة بهم في يناير الماضي، أصبحت أكثر انغلاقًا وانسحابًا. ولا بد أن وفاة زوجها، توماس، كانت القشة التي قصمت ظهر البعير وكان الجميع يعلم أن ثمة مشكلاتٍ مالية تُواجهها الأسرة.

هزَّت الأرملة سيلفا رأسها. كانت تعرف ما يَعنيه فقدان الزوج — فقد فقدت زوجها في عرض البحر — لكن الحياة استمرَّت. لم يكُن أمام المرأة خيار سوى الاستمرار.

في ذاك اليوم، كانت تشعر بأن كل سنةٍ من سنوات عمرها الستين قد أنهكتها. لم يكُن ثمة شيء سهل. أحكمت وشاحها على كتفَيها وتحسَّسَت طريقها على الرمال السوداء في اتجاه قوارب الصيد المحلية. تساءلت في نفسها أين تكون آنا. عادةً ما تحرص آنا على مراقبة أخوَيها، في محاولةٍ منها لإبعادهما عن المشكلات. جزَّت العجوز على أسنانها. كانت آنا مُنشغلةً جدًّا بهذَين الفتيَين.

وبعد لحظات قليلة، وصَلَت الأرملة سيلفا إلى صاجات الشواء والتدخين الخاصة بها. ووضعت سلَّتَها المليئة بالأعشاب البحرية المُجفَّفة وجلست بكل ثقلها على كرسيها. أخرجت علبة البارود الخاصة بها، وحكَّت حجر الصوَّان بظَهر شفرة سِكِّينها. فتطاير الشرر بعيدًا عن حجر الصوَّان واستقر على الصوفان الجاف. انحنت ونفخت في الشرر. كان الصوفان في دائرة صغيرة من الحجارة السوداء. فبدأ يتوهَّج ثم تحوَّل الوَهَج إلى لهب.

قالت: «ناوِلْني تلك الأعشاب البحرية الجافة.»

قفز الصبي النحيل الذي كان يختبئ خلف قارب الصيد مرتديًا أسمالًا بالية. وقال: «كيف عرفتِ أنني هنا؟»

زمجرت العجوز. وتابعت قولها: «أنت تَظهر دائمًا عندما أُشعل النار.»

أمسك رودي بحفنة من الأعشاب البحرية. وسألها: «هل هذا كافٍ؟»

«يكفي حتى هذه اللحظة.»

تحاشت النظر إليه، ووضعت الأعشاب البحرية فوق الصوفان المشتعل. بدأت تحترق، وبدأت تنطلِق منها رائحة زكية تجمع بين رائحتَي الملح والتراب. ناولَتْ رودي الركائز الخشبية الرقيقة الخاصة برف الشواء.

وقالت: «أمسِك هذا.»

تراجع الصبي كما لو أن حيَّةً لدغته. وصاح: «لا أستطيع.»

قالت بحزم: «بل تستطيع»، وأشاحت ببصرها إلى الجانب الآخَر بينما كان يُجاهد لموازنة القِطَع الخشبية على ذراعه المشوَّهة. وُلد رودي قبل موعِده بوقتٍ طويل، وكانت ذراعه اليسرى وقدمه اليسرى مُلتويتَين مثل جذور الكرمة. لم يكُن باستطاعته التسلُّق أو الركض مثل الصبية الآخَرين، لكنه كان يتمتَّع بذكاءٍ حادٍّ كنصل السيف.

قالت له وهي تأخذ الركيزة الأخيرة من يدِه وتضعها في مكانها: «شكرًا لك.»

مدَّت يدها إلى داخل قِدرٍ عتيق، مَليء بالماء المالح. أخرجَت عشرات الأسماك صغيرة الحجم فضية الظهر ذات عيون غائمة نافقة، ووضعتها على صاجات الشواء والتدخين واحدةً تلو الأخرى.

اقترب رودي أكثر فأكثر.

ثم سألها: «بمجرد أن تجف، كم ستستغرق من الوقت؟»

«المدة الكافية لتخزينها في حالة إذا ما عجزت قوارب الصيد عن الإبحار.»

«هل من عاصفة قادمة؟»

تطلَّعَت الأرملة سيلفا إلى الأفق عَبْر الفجوة الموجودة في السور المُرتفع الذي يحمي الميناء. كان سطح المحيط الأطلنطي مستويًا ومُعتِمًا. ولكن حتى في هذه البقعة، مباشرة بالأسفل بالقُرب من الماء، كان الهواء رطبًا وثقيلًا. ثمَّة شيء مُقلِق في هذا السكون.

قالت: «لا أعتقد ذلك ...» ثم التفتت وولَّت وجهها شطر اليابسة نحو الجبل الأسود. وأردفت: «لكنْ ثمَّة شيء قادم.»

تابع رودي نظراتها. كانت جميع المنحدرات السفلية خضراء مكسوَّة بالعشب. أما الجزء العلوي من اليابسة فكان جافًّا وقاحلًا. أما السماء التي تعلو الجبل، فكانت بيضاء. بَدَا له كل شيءٍ على حاله.

سألها: «ماذا تقصدين؟»

هزَّت العجوز رأسها. وأجابته: «لا أعرف. أنا امرأة مُسِنَّة، ولربما يُخيَّل إليَّ ما ليس له وجود» ضغطت بيدَيها على رُكبتَيها، وهبَّتْ واقفةً على قدمَيها. وأردفت تقول: «ابقَ هنا وتولَّ أَمْر الأسماك بالنيابة عني.»

سألها: «إلى أين تذهبين؟»

بَدَا أن الأرملة لا تسمعه. وتابعت قولها: «اجعلها قريبة من الدخان، ولكن بعيدةً عن اللهب.»

كرَّرَ سؤاله: «إلى أين تذهبين؟»

جاء ردُّها: «لا تدَعِ النار تنطفئ.»

في البداية، استمتع رودي بمهمته.

كان من المُمتع أن يكدِّس الأعشاب البحرية على اللهب ويُراقب الأسماك يتغيَّر لونها في أثناء تجفيفها. ولكن بعد ذلك قذف كميةً كبيرة من الأعشاب البحرية في النار دفعة واحدة فارتفعت ألسنة اللهب وتأجَّجَت، لتحرق زعانف ذيل الأسماك. اندفع مُتعثِرًّا إلى البرك الصخرية والْتَقط بعض الأعشاب الرطبة ليخمد بها ألسنة اللهب. بَدَا أنها أدَّت الغرض، حتى أدرك أن ثمة رائحة مختلفة تنبعث. كانت تفوح من الأعشاب الجافة رائحة الملح والتراب. أما الأعشاب الرطبة فكانت تفوح منها رائحة عفنة.

عضَّ رودي على شفتِه ليمنع نفسه من البكاء. كان الفشل يُلازمه بغضِّ النظر عما يفعله. وكان الصبية الآخَرون يسخرون منه. كان الجميع يُخبرونه بأنه عديم الفائدة. وبابلو أولهم وأسوءُهم في ذلك. وها هو مرَّة أخرى، يثبت لهم أنهم مُحقُّون في قولهم. إنه عاجز حتى عن الإبقاء على النار مشتعلة.

تمنَّى أن تنشق الأرض وتبتلِعه.

الفصل الخامس

في المنطقة الجرداء الخالية من الأشجار أعلى الجبل الأسود، حدَّقَت آنا في المكان الذي مات والدها عنده.

أحبَّت آنا تغريدات العصافير. وعشقت مُراقبة الطيور الزرقاء الصغيرة وهي تحطُّ على الأشجار وترحل منها، أو رؤية أسراب الكناري البري. أما اليوم، فقد ساد المكان هدوء تام. ولم يكسر حاجزَ الصمت أيُّ شيءٍ ولا حتى صقر العويسق المُحلِّق عاليًا في السماء. تساءلت في نَفْسها: ربما عرفت الطيور ما حدث هنا وكانت تُبدي احترامها.

في تلك اللحظة، بزغت أشعة الشمس من خلف الغيوم وحوَّلَت الأرض إلى اللون الذهبي. أطلقت آنا العنان لابتسامتها. فالطبيعة لا تأبَهُ بحياة النساء أو الرجال على الإطلاق.

في تلك اللحظة، صارت السماء رقعةً بيضاء شاسعة بفعل توهُّج الشمس خلفها. خيَّمَ على الأجواء ضباب من نوعٍ غريب. ومن هذا الارتفاع كان من السهل تخيُّل جميع الجزر الأخرى المحيطة بتينيريفي. أطلق والدها عليها دائمًا «النجوم السبعة في سماء زرقاء».

تذكَّرَت كلمات والدها، وكأنها طعنات سدَّدتها إليها الذاكرة، في ليلة الهجوم على بستان كرم العنب الخاص بهم. أربعة رجال، مُلثَّمون بقلنسوات سوداء، كانوا قد تسلَّلوا إلى أرضهم حامِلين في أيديهم مشاعل. ولولا أن صديقهم أنطونيو كان حاضرًا، لخسروا كل شيءٍ إثر ذلك.

وبعدما زال الخطر، أخذ أنطونيو والدتها وشقيقَيها إلى البيت. وبقِيَتْ آنا في بستان الكرم مع والدها لتُراقب الأجواء مخافة أن يعود المُهاجمون.

كانت ليلةً باردة من ليالي شهر يناير وكان والدها قد دثَّرَها ببطانية ذات لونٍ بُني فاتح لتظلَّ شاعرة بالدفء. كان جميع العمال على الجزيرة يرتدون الوشاح الصوفي الطويل نَفْسه ذا التقليمات الزرقاء عند الحواف.

وبينما كانا يجلسان في الظلام، أشار والدها إلى سماء الليل وأخبرها أنها ليلة شديدة الخصوصية. شعرَتْ آنا بالغضب. لم تفهم كيف استطاع أن يظلَّ هادئًا بعد ما حدث للتو. لقد خسروا كل شيءٍ تقريبًا.

قال لها: «اسأليني عن السبب.»

وعندما لَمْ تُعطِه جوابًا، ضحك.

فأردف قائلًا: «حسنًا، سأُخبرك على أية حال. السماء صافية جدًّا الليلة، ولذا يمكنك رؤية كوكبة العذراء. انظري.»

أمالت آنا رأسها إلى الخلف، رغمًا عنها، وحدَّقَت في السماء.

سألها والدها: «كم عدد النجوم التي ترينها؟»

أجابت: «سبعة.»

أومأ برأسه. وأردف: «كوكبة السبع عذارى في السماء بالجزر السبع على الأرض. هذه هي حياتنا يا آنا. حياتنا هنا على جزر الحظ السعيد. وتينيريفي هي الجزيرة الأوفر حظًّا بينها جميعًا.»

كوَّرَت آنا قبضتها. «حتى بعد ما حدث للتو، يا أبي، كيف يتسنَّى لك أن ترانا محظوظين؟ لماذا لا تشعر بالغضب؟ لماذا لا ...»

ربَّت بيدِه في لُطف على ذراعها.

وقال: «الحياة صعبة على معظم الناس يا آنا. نحن محظوظون بقدْر ما نستحقُّ أن نكون. إننا على قَيْد الحياة. ولا يزال لدينا بستان الكروم. لم ينتصروا علينا.»

في تلك اللحظة، كانت تقِفُ في المنطقة الجرداء الخالية من الأشجار، تذكَّرَت صوت والدها العزيز، وشعرت أن عينَيها اغرورقت بالدموع مرة أخرى.

فجأةً، شعرت آنا بالأرض تميد وتهتز بها فخانتها ساقاها من تحتها. أدركت آنا بعد ذلك أنها تمرغت في التراب وانقطعت أنفاسها.

أحيانًا، كانت الأرض تنوء بالشكوى. كل طفل في الجزيرة يعرف هذا، والكبار يتحدثون عنه أيضًا. فمن حينٍ إلى آخَر، عصفت بالجبل هزات أرضية، رغم أن هذا لم يُغيِّر شيئًا أبدًا. لكنها لم تشعر بشيءٍ بهذه القوة البالِغة من قبل.

وضعَتْ آنا كِلتا يدَيها مُستويتَين على الأرض. لا حركة، لا صوت، لا شيء. استمعت، ثم انتظرت، وتوقَّعَت حدوث هزة أخرى. ميل آخَر، واهتزاز للأرض. لكن لم يحدث شيء. كان كل شيء هادئًا، كان كل شيء ساكنًا.

ولكن انتابها في تلك اللحظة شعور بالغثيان. أدركت أنها قد سقطت تحديدًا في المكان الذي عُثر فيه على والدها. حاولت آنا ألا تستغرق في التفكير بمنظر رأس والدها المهشم بقوة اختراق الرصاصة له. أو شعره الأسود الطويل المُلبَّد بالدماء. كان مشهدًا لن تنساه أبدًا طوال حياتها. وبدلًا من ذلك، أرغمت نفسها على النظر إلى البقعة الحمراء الموجودة على الصخرة، والتي تحوَّلَت الآن إلى لونٍ بُني مائل إلى الصدأ بِفعل شمس جزيرة تينيريفي الحارقة.

جلست مُستندة بظهرها على السطح الخشن للجلمود. أغمضت عينَيها، في محاولةٍ منها لتخيُّل لحظاته الأخيرة. هل كان هناك قاتل واحد أم أكثر؟ هل كان والدها يعلم أنه في خطر؟ هل كانت لحظاته الأخيرة مليئة بالخوف أم الحب لأسرته؟

وإنْ كان قد أطلق النار على نفسه، كيف فعل ذلك؟ كانت فوهة بندقيته طويلة. سيكون من الصعب جدًّا إطلاق النار. كانت الفوهة طويلةً بنفس طول قامة والدها تقريبًا. ضمَّت آنا ركبتَيها وتخيَّلَته يحشر البندقية بين حذاءَيه. تخيَّلَت العلامة الغائرة في إصبعه حيث أحدثَ الخيطُ الملفوف ندبةً على جلده. قلَّدَت الطريقة التي ربما استخدمها للفِّ الخيط حول الزناد، رابطًا إيَّاه حول قاعدة البندقية لكي يُبعدها عنه بمسافةٍ مناسبة.

فجأةً فتحت عينَيها. بالطبع! هكذا وقع الحادث.

بينما كانت تقف بالمجلس البلدي، تنظر إلى جثة والدها المُسجَّاة على الأرض، رأت الخطأ الذي اقترفه قاتلوه. في ذلك الوقت، لم تكُن قد استوعبتِ الأمر. كانت العلامة الحمراء التي أحدثَ فيها الخيط قطعًا في جلد والدها موجودة على سبابته اليُمنى، لكن تلك كانت السقطة.

كان والدها أعسر في كل شيءٍ باستثناء الكتابة. فعندما كان صبيًّا، ربط الكاهن يدَه اليسرى خلف ظهره ليُجبره على استخدام يدِه اليمنى أثناء استذكار الدروس. وكان يتعرَّض للضرب عندما يرتكب خطأً. إلا أن هذا الدرس القاسي آتى ثماره. كان والدها يوقع الوثائق بيده اليُمنى. فعندما أبلغ في المجلس البلدي عن الهجوم الذي تعرَّض له بستان الكروم خاصته، استخدم يدَه اليُمنى لتوقيع اسمه؛ توماس بيريز. لكنه كان يستخدِم يدَه اليسرى في كل شيء آخَر؛ من أجل تقطيع الخشب، وتشذيب أشجار الكروم، والرماية.

ما كان والدها ليُطلِق الرصاص على نَفْسه من بندقيته باستخدام يدِه اليُمنى أبدًا، إلا أن القتلة لم يعرفوا ذلك. لقد ربطوا الخيط بالإصبع الخطأ.

الفصل السادس

تحامَلَت آنا لتقف على قدمَيها.

كانت آنا قد غابت عن المنزل لفترة طويلة جدًّا، إلا أنها كانت بحاجةٍ للتحدُّث مع أنطونيو، صديق والدها المُقرَّب. عاش أنطونيو على مسافةٍ بعيدة أعلى الجبل. من شأنه أن ينصحها بما ينبغي أن تفعله.

كان أنطونيو راهبًا، اختار أن يقضي أيَّامه في عزلةٍ بكوخ على منحدرات الجبل الأسود. كان يُربِّي عنزة من أجل الحليب ونادرًا ما ينزل إلى البلدة. اختلفت ملابسه عن معظم ملابس سكان الجزيرة. كان يرتدي سروالًا قصيرًا حتى رُكبتَيه وسُترة ضيِّقة. وكان لون شَعره ولحيته رماديًّا، ولكن لا أحد يعرف عُمره تحديدًا.

أحاطت به الشائعات مثلما يُحيط الضباب بالأجواء في فصل الخريف. بعضهم قال عنه إنه مجنون، وقال بعضهم الآخَر إنه مالكُ أراضٍ، ثريٌّ فقَدَ ثروته. وآخرون قالوا عنه إنه كان دخيلًا جاء من إحدى جزر الكناري الأخرى أو من البر الرئيسي. وزعم غيرُهم أنه تعرَّض للغرق إثر تحطُّم سفينته على الساحل الشمالي لتينيريفي وكان مُختبئًا. وقالوا إنه كان قرصانًا، أو إنه كان بحارًا، أو جاسوسًا لملك إسبانيا. ولم ينفِ أنطونيو شيئًا من هذا، ولم يُعلِّق بشيء، وإنما واصَلَ نشاطه الهادئ فحسب.

كل ما عرفَتْه آنا هو أن أنطونيو أكثر صديق يثِق به والدها. لقد عارضَ بثباتٍ الأثرياءَ القليلين الذين فرضوا سيطرتَهم على البلدة مثلما فعل والدها تمامًا. كان العمدة والكاهن شقيقَين وينتميان إلى عائلةٍ ثَرِية من إسبانيا تشتغل بتصنيع النبيذ. وكان الأخ الثالث يعيش على البر الرئيسي ويشتري النبيذ ويبيعه. وكانت الأخت الوحيدة مُتزوجة من رجلٍ لدَيه أسطول من السفن وأموال طائلة. لم يُبدِ أيٌّ منهم احترامًا لعادات الجزيرة وتقاليدها.

فعندما حاول العمدة إجبار والدِها على بيع أرضهم له، ساعد أنطونيو عائلة بيريز على التصدي له. وعندما جاء الرجال في الليل بالمشاعل لإحراق أشجار الكروم الخاصة بهم، كان أنطونيو هو مَن دقَّ ناقوس الخطر.

ركضَتْ آنا مرَّة أخرى على الطريق وكانت على وشك البدء في الصعود إلى كوخ أنطونيو، عندما أوقفها صوتٌ وهي في طريقها.

«آنا!»

تردَّد صدى اسمها وسط جنبات الجبل.

«آنا!»

الْتَفتت. وعلى المنحدر خلفها، استطاعت أن ترى أحد أخوَيها التوءم يُلوِّح بذراعَيه. ظنَّت أنه بابلو. فعلى الرغم من أن الشقيقَين التوءمَين كانا مُتشابهَين في مظهرهما الخارجي، كانت شخصياتهما مختلفة تمامًا. كان بابلو صاخبًا، دائم الصراخ. بينما كان كارلوس هادئًا، دائم الإنصات.

تظاهرت آنا بأنها لم تسمع.

«يجب أن تأتي! أُمي تريدك.»

لم تستطع سماع ما كان يقوله، ولكنها خمَّنَت ما أراده من إشارات يده. كان يتعيَّن عليها العودة إلى المنزل. سيتعيَّن عليها تأجيل زيارتها إلى أنطونيو حتى الغد.

الْتَفتَت آنا بتنهيدةٍ ونزلت لتلحَق بأخيها.

الثلاثاء، ٤ مايو ١٧٠٦

اليوم السابق

الفصل السابع

في الصباح التالي، استيقظت آنا قُبَيل الفجر. لم تكد عيناها تذوق طعم النوم.

كانت ليلة طويلة. تملَّك والدتَها حزنٌ شديد — بدا أن الزائرين تردَّدوا على المنزل — فعندما عادت آنا أدراجها، لم تذكُر أين كانت، ولا كيف شعرت بالأرض تهتز أسفل منها.

في ذلك الوقت، كانت آنا قد أعدَّت عشاءً بسيطًا من الجبن والخبز — وأقنعت والدتَها بتناوُل القليل من النبيذ ليُساعدها على النوم — وكان الظلام قد حلَّ. أصاب الاضطراب كلًّا من بابلو وكارلوس. تشاجرا حول نظارة والدهما حتى أخذتها آنا منهما. ومن أجل تهدئتهما، قرأت بصوتٍ عالٍ من الكتاب المقدس — كانت قصة سيدنا يونس والحوت هي القصة المُفضلة لهما — إلى أن نفد الزيت من المصباح الزيتي.

وعندما خلد التوءمان أخيرًا إلى النوم، شعرت آنا أن النوم يُجافِيها. كان عقلها يموج بكل ما حدث خلال اليوم. وبينما كانت مستلقيةً على فراشها، في انتظار الفجر، استطاعت أن تسمع صوتًا مدوِّيًا صادرًا عن الجبل الأسود من بعيد.

قالت آنا، وهي تُعلق حقيبة والدها الجلدية على كتفها: «سأعود في أقرب وقتٍ مُمكن. اتركا أُمي لترتاح. وإذا جاء أيُّ شخص، فلا تسمحا له بالدخول.»

قال كارلوس: «ولكن لا يُوجَد شيء لنفعله داخل المنزل.»

أطلقت آنا ضحكةً قصيرة. ثم أردفت: «يجب تلميع الطاولة، يجب غسل البلاط، والـ ...»

قاطعها بابلو: «هذه المهام للفتيات.»

الْتَفتَت آنا إليه. وقالت «ماذا قلت؟»

امتقع وجه بابلو. وأطرق كارلوس ببصرِه ناظرًا إلى حذائه؛ إذ كان دومًا أكثر خجلًا من توءمه.

رد بابلو: «لا يُضطر الصبية الآخَرون إلى أداء الأعمال المنزلية.»

ردَّت عليه بحِدَّة: «الصبية الآخَرون يعملون في الحقول. هل تُفضِّل ذلك؟»

هزَّ بابلو كتفَيه. وقال: «لن أبالي.»

كانت آنا تعرف أنه لا يقول الحقيقة. أراد الأب أن يُحبِّب صناعة النبيذ إلى قلب ابنَيه، بالطريقة نفسها التي أحبَّتْه بها آنا. كانت آنا تستمتع بكل خطوةٍ من خطوات العملية؛ تقليم الكروم، مُراقبة ظهور العنب لأول مرة، الحصاد والأيام والليالي الطويلة جدًّا المُستغرَقة لتحويل العنب إلى نبيذ. كانت تهوى كتابة الملصقات التي يُفترَض أن تُوضَع على كل برميلٍ خشبي مصنوع من البلوط. إلا أن شقيقَيها لم يُبدِيا أي اهتمامٍ على الإطلاق.

قالت: «حسنًا. سأتحدَّث مع رئيس العمال وأتخذ الترتيبات اللازمة لبدء العمل في الغد.»

ومن وراء ظهرها، شعرت بأن التوءمين يتبادلان نظرات جامحة.

ثم أضافت قائلة: «بالطبع هذا سيعني عدم الذهاب إلى الميناء في فترة ما بعد الظهيرة. لن يكون لديكما وقت. ولكن إذا كان هذا ما تُريدانه ...»

الْتَقطَت آنا وشاحها من الشماعة الموجودة خلف الباب وهمَّت بالمغادرة.

ناداها بابلو قائلًا: «انتظري!»

رسمت آنا الصرامة على وجهها. وأردفت: «ما الخطب؟»

قال مترددًا: «كنت ...» ثم عبس وجهه. وبعدها أردف: «عندما ننتهي من المطبخ، ماذا ينبغي أن نفعل بعد ذلك؟»

ابتسمت آنا. ثم قالت: «بعد الانتهاء من جميع الأعمال المنزلية، يُمكنكما الذهاب إلى الميناء وشراء السمك لنُعدَّ العَشاء. اذهبا إلى الأرملة سيلفا. أسماكها دائمًا طازجة.»

لفَّ كارلوس ذراعَيه حول خصرها.

وقال: «شكرًا لك!»

طبَعَت آنا قُبلة على قمة رأس كارلوس وربَّتت بيدِها على كتف بابلو.

ثم قالت: «ما دُمتما تَعِيان أنه لم يعُد هناك مهام للصبية وأخرى للفتيات في هذا المنزل، وإنما هي مهام يجب إنجازها وحسب. هل تفهمان؟»

أومأ التوءمان برأسَيهما موافقة.

ابتسمت آنا. وتابعت قولها: «الآن، هلا ناولتني قُبعتي؟»

نظر كارلوس إلى الشماعة. وقال: «ليست هنا.»

قَطَّبت جَبينها. وأردفت: «لا بد أن تكون عندك. أنا دائمًا ما أضعها في هذا المكان.»

قال بابلو: «انظري بنفسك.»

أدركت آنا أنها ربما تركتها في المنطقة الجرداء الخالية من الأشجار بعد ظهيرة أمس. أيًّا ما كان، يُمكنها أن تحضرها بعد زيارة أنطونيو. فحُسن خلقه سيمنعه من إبداء الاستياء عند رؤية شَعرها مكشوفًا بلا غطاء.

قالت: «سأعود إلى المنزل في وقتٍ مبكر من فترة ما بعد الظهير. لا تفتعِلا المشكلات.»

على الرغم من أن حُزنها على والدها كان كحجرٍ ثقيل جاثم باستمرار فوق صدرها يسلبها أنفاسها شعرت آنا بارتفاع معنوياتها عندما شرعت في الصعود إلى الجبل.

مرَّت على مزرعة الكروم الخاصة بهم، لتُومِئ برأسها إلى عمَّال المزرعة. وأثناء الليل، تساءلت في نفسها عما إذا كان المال هو السبب وراء مجيء الرجال أمس إلى المنزل. ما كانت آنا لتحتمِل فكرة أنهم سيُضطرون إلى بيع أرض العائلة، بَيْد أن الحقيقة القائمة تقول إنهم سيواجهون صعوبةً في دفع فواتيرهم المستحقة بحلول نهاية الربع التالي من العام. كانت الظروف تُحتِّم عليهم جَنْي محصولٍ جيِّد من العنب هذا العام.

حاولت أن تُرتِّب كل شيءٍ في ذهنها بينما كانت تهم بصعود الجبل. وبخُطًى ثابتة، صعدت إلى أعلى أكثر فأكثر، تسحق الأرض الجافة بحذائها. وزاد انحدار المنحدَر. كان السطح عبارة عن مزيجٍ من الحصى والحجَر وظلَّ حذاء آنا ينزلق فوقهما، ولكنها واصلت المسير.

قَضَت آنا حياتها كلها وسط هذا المشهد الطبيعي. اعتادت آنا تغيير الألوان حسب الفصول. وكانت تحفظ الروائح والأصوات عن ظهر قلب كما تحفظ ملامح وجهها في المرآة. ولكن اليوم يبدو أن تلالًا ظهرت في مواضع كانت الأرض مسطحة فيها من قبلُ، كما ظهرت تجاويف ضحلة غريبة لم يكُن لها وجود من قبلُ. لا شيء يبدو على حاله.

كانت السماء عبارة عن امتدادٍ شاسع من اللون الأبيض وظهر بريق غريب كما لو أن الضباب البحري قد استقرَّ فوق القمة. بقيت الأجواء رطبة أكثر مما هو معتاد في هذا الوقت من اليوم، على الرغم من أنه لم يكُن هناك أي علامة تدلُّ على هبوب عاصفة. غطَّت السحب الرمادية أعلى قِمَم الجبل الأسود. وبَدَت أقرب إلى بُخار يتصاعد من قِدْر للماء المغلي.

تجهمت آنا. لو كان والدها موجودًا هنا، لسألته عما يَعنيه ذلك. فبصفته مزارعًا، كان دائمًا يَنتبه لأي تغيير يطرأ على حالة الطقس. كانت تسأله أيضًا عن الهزة التي شعرت بها أمس.

وكان من شأنه أن يُخبرها، مثلما كان عهده دومًا: «كل ما هنالك أن الأرض تُخبرنا مَن الذي يمسك بزمام الأمور»، وكانت آنا تشعر بالاطمئنان حينها. وكان يردف قائلًا: «الأرض تُذكِّرنا بأن نَعتني بها جيدًا.»

الفصل الثامن

لم يغمض جفنٌ للأرملة سيلفا، مثل آنا تمامًا.

وعند الفجر، استسلمت وذهبت إلى مكانها المعتاد بجوار طاولات صيد السمك. كانت الأفكار تطِنُّ في رأسها مثل الدبابير في جرة. خشِيَت أن يكون هناك رابط بين التغييرات الطارئة على الجبل ووفاة والد آنا، توماس بيريز. لم ترغب في الاعتراف بذلك، لكن تملَّكها الشعور بالخوف.

وفي وقتٍ لاحق، تناوَلَت الفنجان الثالث من القهوة المُرَّة السوداء عندما رأت هيئة أنطونيو بقامته الطويلة والنحيلة يسير في الشارع المنحدِر المؤدي إلى الميناء.

قالت: «حمدًا لله.»

ثم هبَّت واقفة على قدمَيها، مما أسقط فنجانها على الأرض. فارت القهوة الساخنة واندلَقَت على النار. لم تنتبِه لشيء، سارت بأسرع ما يمكن أن تحمِلها ساقاها العجوزتان عَبْر الرمال لتلتقِيَه.

قالت له عندما وصل إلى مستواها: «ثمَّة خطب ما.»

أومأ أنطونيو برأسه موافقًا. وأردف: «أجل، جميع الأمارات تُشير إلى ذلك.»

استدار الصديقان العجوزان ونظرا فوق برج كنيسة القديسة آنا، ثم إلى الجبل الأسود من ورائه. أمكنهما رؤية سُحب من الدخان الرمادي الداكن تحوم فوق الفوهة.

«أهكذا بدأ الأمر من قبل؟»

أومأ برأسه مرة أخرى. وأردف: «أولًا، وقعت الهزات الأرضية، ثم تصاعدت السُّحب البيضاء من وسط الرماد، ثم السحب الرمادية، ثم تحوَّلَت السماء إلى اللون الأحمر. وانبعث الرماد الأسود والحِمَم البركانية من ثلاث فوهات. ثم جاء نهر من النيران لا يُبقي ولا يَذَر ليُحيل الأرض إلى صخرة.»

تطلَّعَتِ العجوز إليه. ثم سألته: «هل توقع توماس بيريز ما كان قادمًا؟»

فأجابها قائلًا: «كان قلِقًا بشأن عدة أمور. لكنه رأى التغييرات الطارئة على الجبل قبل أن أراها أنا.»

مالت برأسها. «والآن هو ميت.»

حدَّقَت في أنطونيو. «الآن هو ميت. إنهم لا يُريدون أي تهديد لثرواتهم.»

وقف العجوزان يُحيط بهما صمت مُطبِق لدقيقة. لم يرغب أنطونيو أن يُخبرها بالمزيد، خشية أن يُعرِّضها للخطر. لم يُساوره الشك في أن صديقه، توماس بيريز، قد قُتِل لإخراسه إلى الأبد.

سألَتْه الأرملة سيلفا: «في رأيك كم تبقَّى من الوقت؟»

أرخى أنطونيو ذراعَيه إلى جانبه. ثم أجابها: «لا يُوجَد شيء أكيد. لقد أَنَّ الجبل الأسود بالشكوى من قبلُ، بَيْد إنه دخل مرة أخرى في سباتٍ عميق.»

رمقته بعينَيها الذابلتَين. ثم تساءلت: «ولكن ماذا لو لم يحدث هذا؟»

أجابها: «يومان، أو ربما ثلاثة أيام على الأكثر.»

أشارت الأرملة سيلفا بإشارة الصليب على نفسها. وسألته: «ماذا يُمكننا أن نفعل؟»

ربَّت أنطونيو بيده النحيلة على كتفها. ثم قال: «لا حيلة بيد أحدٍ لإيقافه. لكن يجب أن نُحذِّر الجميع في البلدة. يجب أن يستعد الناس للمغادرة.»

نظرا على طول الشارع الضيِّق حيث مقر المجلس البلدي. كان عبارةً عن مبنًى أبيض مهيب في قلب الساحة الرئيسية. رفرف علَم ملوَّن فوق ساريتِه. اصطفَّت زهور زاهية في صناديق النوافذ الخشبية على نوافذ الطابق الأول. بَدَا المشهد رائعًا يوشي بأهمية البلدة باعتبارها أكبر ميناء تجاري في تينيريفي.

قالت الأرملة سيلفا بهدوء: «لكن هل سيستمعون؟»

تجهَّم وجه أنطونيو المليء بالتجاعيد. ثم أردف: «إنهم لم يستمعوا إلى توماس ولا أظن أنهم سيستمعون إليَّ. ولكن ليس أمامنا خيار سوى المحاولة.»

الفصل التاسع

نادت آنا: «أنطونيو.»

على الفور استطاعت أن تُخمِّن أنه ليس بالمنزل. هناك طابع من الصمت والهدوء يُوحي بأن المكان مهجور. لا أثر لنسمة هواء، أو صوتٍ واحد. ولا أثر حتى للسحالي الزاحفة تحت الشجيرات. بدا الأمر وكأن الدنيا قد توقفت.

نادت مرة أخرى: «أنطونيو؟» ما مِن مُجيب على أية حال.

كان الباب المؤدي إلى الكوخ الخشبي ومصراع النافذة مفتوحَين. هل حدث شيء ما يدعوه للمغادرة؟

مرَّت آنا على قطعة الأرض الصغيرة القاحلة أمام الكوخ. انحنت ووضعت يدَها فوق النيران. فوجدت الرماد باردًا. كانت النيران قد خمدت منذ مدةٍ طويلة. تناثر عدد قليل من الحطب المحروق وكان هناك إناء طهي من الزهر موضوعًا على الرماد.

نادت لثالث مرة: «أنطونيو؟» ولكن هذه المرة بصوتٍ هامس.

تحرَّكَت آنا ببطء نحو الكوخ الصغير وقلبُها يرتجف. أخذت نفَسًا عميقًا، ثم ألقت نظرةً إلى الداخل. ما طمأنها أن أنطونيو لم يكُن هناك. فبعد وفاة والدها، أدركت أنها صارت تقلق حيال ما قد تجده.

كان الكوخ صغيرًا وبدائيًّا، مجرد غرفة واحدة مزودة بعلية نوم في الطابق العلوي، لكنه كان نظيفًا. نظرت حولها. كل شيءٍ بدا كالمعتاد. ثمَّة صحن خشبي على الطاولة بالإضافة إلى رغيف خبز تحت قطعة قماش. وطبق وكوب خشبي. رفعَتْه وشمَّت بقايا بعض النبيذ المَحلي — هل من المُحتمل أن يكون هذا نبيذهم؟ قطَّبَت آنا جبينها. يقول أنطونيو إنه لا يملك شيئًا يستحق السرقة، لكنه دائمًا يُغلق بابه ومصراع نافذته إذا كان

سيذهب إلى البلدة. ومرَّة أخرى، لم يكُن هناك أي علاماتٍ تدل على أنه قد غادر في عجلةٍ من أمره.

سمعت صوتًا. ثُغاءٌ خفيض.

ركضت آنا حول البناية إلى الجزء الخلفي من الكوخ، حيث وجدت عنزة أنطونيو. كانت العنزة مربوطةً بحبل طويل في عمود خشبي. وهناك وجدت رءوس ثمار قليلة من الخضراوات في معلف التغذية وعلى مقربة، كانت توجَد بِركة من ماء المطر تصلح للشرب. على أية حال، خمَّنَت آنا أن العنزة بحاجةٍ إلى أن تُحلَب. لم يعتد أنطونيو التقصير في الاعتناء بحيواناته.

بحثت آنا عن الكرسي المُنخفض ذي الأرجل الثلاثة والدلو المعدني وهي ما زالت تتساءل في نفسها عن المكان الذي ذهب إليه أنطونيو. كان الدلو مُغبَّرًا من الداخل بشيءٍ أشبَه بالرماد الأبيض الناعم. قلبته رأسًا على عقب ومسحته بيدِها. كان للرماد ملمس زلِق وعندما قرَّبَت أصابعها إلى وجهها، كان ثمَّة رائحة نفَّاذة مثل رائحة الليمون المحروق.

مسَحَته بطرف تنورتها، ثم بدأت تحلب العنزة. وما إن أسندت آنا وجهها على الفرو الدافئ للعنزة حتى دلَّكت ضروعها لجمع الحليب في الدلو. كانت فروتها خشِنة تَخِزُ خدها. ظنَّت أنها شعرت بهزة خفيفة تحت قدمَيها مرة أو مرتَين، لكن العنزة كانت هادئة وهذا، بدوره، طمأنها.

عندما انتهت، أطالت آنا كتفَيها وثنت أصابعها. على الأقل سيكون لدى أنطونيو حليب يتناوله على العشاء عندما يعود.

ثم لاحظت شيئًا غريبًا. لا بد أن هذا خدعة من خدع الضوء.

ذهبت آنا إلى البركة. لقد تحوَّلَت المياه إلى اللون الرمادي، كما لو أن صبغةً سُكبت فيها. غمست يدَها فيها وعلى الفور، شعرت بحكة على بشرتها. كانت هناك رائحة البيض الفاسد نفسها، بل وأسوأ من ذلك بكثير.

ثم، فجأة، شعرت آنا بالأرض تميد تحت قدمَيها. وهو ما جعلها تشعر بترنُّح عنيف، تمامًا مثلما حدث بالأمس، ولكن هذه المرَّة استمرت الهزة لفترةٍ أطول. كان الأمر أشبه بوقوفها على ظهر سفينة تتدحرج وتتأرجح في عرض البحر. ضمَّت ركبتَيها، حتى لا تسقط. الآن بدأت تشعر بشيء على مؤخرة رقبتها أيضًا. أكانت هذه قطرات مطر؟ نظرت إلى أعلى ورأت رمادًا باللون الرمادي الفاتح بدأ يُغلِّف الأجواء.

توقفت الأرض عن الاهتزاز بالسرعة نفسها التي بدأت بها. استقرَّت الأرض، كما لو أن شيئًا لم يحدُث. لكن الرماد واصل السقوط. خطرت على بالها أقوال أخرى لوالدها. ولكن لم تُطمئنها الذكرى هذه المرة.

كان سيقول: «لا داعي للخوف من الجبل حتى يتساقط الثلج الأسود.»

بالطبع، لم يكُن يقصد الثلج، وإنما الرماد. كان الرماد الرمادي اللون ينبعث من فوهة الجبل الأسود. وبعد الرماد الرمادي، يتساقط الثلج الأسود.

أدركت آنا أن هذا الأمر أكثر خطورةً من أي شيءٍ عرَفَتْه من قبلُ. تعين عليها تحذير البلدة بما يحدث على الجبل قبل فوات الأوان. ثم خطر ببالها أن هذا حتمًا المكان الذي ذهب إليه أنطونيو. كان قد رأى الخطر قادمًا وذهب لدقِّ ناقوس الخطر.

ركضت مرَّةً أخرى إلى الكوخ. وبحثت عن ورق وقطعة من الفحم، وكتبت رسالة موجزة تشرح ما حدث. وأضافت أنها بحاجة إلى التحدُّث إليه بخصوص خطاب والدها. ثم وضعت رسالتها تحت الكوب الخشبي على الطاولة وغادرت.

لم ترغب آنا في ترك العنزة، ولذا قررت أن تأخذها معها. كان بمقدور والدتها الاعتناء بها. وعلى الرغم من أن والدتها واجهت صعوبة في التحدُّث مع الناس، فقد كانت تُجيد الاعتناء بالحيوانات. فكَّت آنا الحبل الخاص بالعنزة، وربطته حول ذراعها وقادتها بسرعة لتهبط الجبل.

وطَوال الوقت، شعرت آنا بالأرض تئنُّ تحت قدمَيها.

الفصل العاشر

«بو!»

فزِعَ رودي. فضحك التوءمان.

صرخ رودي، وقد امتقع وجهه: «لماذا فعلت ذلك؟» وقف خلف قارب الصيد ونفض الرمال عن سرواله.

سأله بابلو: «لماذا كنتَ تختبئ؟»

«أنا أتابع صاجات الشواء والتدخين الخاصة بالأرملة سيلفا. معي كل الحق لأتواجد هنا. اتركاني بمفردي.»

كان رودي أكبر من التوءمَين بعامَين، ولكنهما كانا يُعاملانه دائمًا كطفل. الْتفتَ مبتعدًا عازمًا على ألا يبكي.

قال بابلو، وهو يُربِّت على كتف رودي: «لا تتصرف هكذا.»

وأضاف كارلوس: «تعالَ معنا إلى الميناء.»

أزاح رودي ذراع بابلو عنه. وأردف: «يجب أن أمكث هنا.»

نظر بابلو من حوله. وقال له: «لن يعرف أحد.»

كرَّر رودي قوله مرَّة أخرى: «يجب أن أمكث هنا.»

سأله كارلوس: «أين الأرملة سيلفا على أي حال؟»

على الرغم من أن رودي لم يكُن يُحب توءم آل بيريز، ولكنه لم يكُن في استطاعته أن يُقاوم التظاهر بأنه يعرف شيئًا لا يعرفونه.

«ذهبت مع أنطونيو.»

رفع بابلو حاجبَيه في استغراب. «العجوز المُقيم في الجبل؟»

«هو بعينه.»

سأله كارلوس: «وماذا يفعل في البلدة؟»

هز رودي كتفَيه. وقال: «كل ما أعرفه أن الأرملة سيلفا بعثت برسالة إليه أمس، وجاء إليها اليوم.»

جذبه بابلو من ذراعه الهزيل. شعر رودي بأصابع بابلو القوية تضغط بشدة بالِغة وتخترق قميصه الخفيف.

قال بابلو بصوتٍ منخفض: «هل كان الأمر يتعلَّق بوالدي؟»

«لا أعرف.»

حاول رودي الابتعاد عنه، لكن بابلو أحكم قبضتَه عليه أكثر. وهو يسأله: «أين ذهبا؟»

أجاب رودي: «ذهبا نحو المجلس البلدي.» ثم أضاف، في لحظة شجاعة: «الأمر يتعلَّق بالجبل. لا علاقة له بوالدك.»

نظر الصِّبية الثلاثة إلى طبقة الغيوم التي تُخيِّم فوق قمة الجبل الأسود. الآن كان اللون رماديًّا داكنًا. شعر رودي بأن الضغط يزول عن ذراعه.

قال بابلو كما لو أن شيئًا لم يحدث: «عندما تعود الأرملة سيلفا، اطلب منها أن تحتفظ بأربع سمكاتٍ لنا. أرسلتنا آنا لنجلبها.»

فرك رودي ذراعه بيدِه السليمة، وهو يتمنَّى في نفسه لو أنه يتحلَّى بالشجاعة ليُعارك بابلو. لكنهما كانا اثنين ضد واحد فقط فضلًا عن أن هذا لن يروق آنا. تمنَّى لو أن لدَيه أختًا مثل آنا؛ شخصًا يعتني به.

قال بصوتٍ هادئ: «حسنًا.»

لقد خسر مرَّة أخرى. لكنه سيُريهما يومًا ما. سيُريهم جميعًا.

الفصل الحادي عشر

نادت آنا من الحديقة الخلفية حالما وصلَت إلى المنزل: «أمي! لقد عُدت.»

«آها، الآنسة بيريز. تفضلي بالدخول.»

كان هذا صوتًا رجاليًّا. جاء في صورة أمر، لا طلب.

شعرت آنا بالتوتُّر، ربطت العنزة وغسلت يدَيها تحت مضخة الماء. كانت تعلم أنها تبدو بمظهرٍ غير لائق. فتنورتها الصوفية ملطخة، وقميصها الأبيض مُغبر بالتراب ورأسها مكشوف بلا غطاء. وبدافعٍ غريزي، دسَّت خطاب والدها في حقيبته الجلدية وتركتها بالخارج. ثم، ضفرت شَعرها ودخلت الغرفة الرئيسية.

كانت الغرفة عبارة عن غرفةٍ مربعة ذات جدران بيضاء وعوارض خشبية، تؤدي وظيفة غرفة معيشة ومطبخ في آنٍ واحد. كان بها موقد من القرميد مفتوح يعلوه غلاية سوداء. ووُضِعت الأواني والمقالي النحاسية على خزانة، وأسفل منها وُضِعَت الأطباق الخشبية والصحون وقماش الكتان. وفي منتصف الغرفة كانت هناك طاولة كبيرة متهالكة ومكشوطة نظرًا لاستخدامها لسنوات طويلة، وستة كراسي ذات ظهر سُلَّميِّ الشكل. وعُلِّق على الجدار صليب خشبي.

نادت آنا: «أمي؟»

ألقت نظرة على والدتها. كانت تجلس إلى جوار المدفأة الباردة وهي تمسك بمسبحتها. تُخفي وجهها وراء الحجاب الأسود المميز للأرامل. وعندما انحنت آنا وقبَّلَت خدَّها، أدركت أن ثمَّة رجلَين يقفان في الظل إلى جوار الباب الأمامي.

قالت والدتها بفزع: «هؤلاء السادة يريدون التحدُّث إليك.»

شعرت آنا بقشعريرة تَسْري في أوصالها.

لم يكُن الزائران مزارعَين مثلهم، وإنما رجلان مهمَّان. رجلان ذوا نفوذ. التفتت آنا عندما دخل القس أولًا، ثم تبِعَه أخوه — العمدة بنفسه — إلى دائرة الضوء.

دفعتها والدتها إلى الأمام. «سلِّمي على ضيفَينا، يا آنا.»

مدَّ القس البدين يده، وهو يتصبَّب عرقًا بسبب الحرارة. كانت أظافره مُتسخة. تحاملت آنا على نفسها لتنحني أمامه وتُقبِّل خاتمه إرضاءً لوالدتها فحسب. أما العمدة فكل شيء يخصُّه كان يشي بتفاخُره بثروته وأهميته. فقد ارتدى سترة ذهبية طويلة، ومُطرزة بخيوط من الحرير الأسود، وسروالًا أحمر، وأحزمة بيضاء وحذاءً بمقدمة مربعة. بدا أشبه برجل نبيل من إسبانيا. فشعره المستعار، المصنوع من شَعرٍ بشري حقيقي، عبارة عن كتلة من الخصل السوداء؛ مفروقة من المنتصف ومثبَّتة في مكانها بواسطة معجون الدقيق. استطاعت آنا أن ترى قطرات الدقيق منزلقة على جبينه.

انحنت آنا انحناءةً قصيرة. وأردفت: «كيف يُمكنني أن أساعدكما، يا سيدي؟»

أشار العمدة بيده.

فجاء القس. وقال: «تناهى إلى مسامعنا أنكم دفنتم والدكم.»

حافظت آنا على رباطة جأشها. وقالت: «أجل، أمس.»

«هل حصلتم على تصريح بدفنه؟»

شعرت آنا باضطرابٍ في معدتها. وأردفت: «القبر على أرضنا، وبما أنه لم يكُن مسموحًا لنا بدفنه في الأرض المقدسة ...»

قاطعها القس قائلًا: «هذه شريعة الرب.»

رفع العمدة يده. وقال: «آها، أرضكم. أخشى أن أقول إن هذه هي المشكلة، آنسة بيريز. كانت الأرض باسم والدك.»

حبست آنا أنفاسها. ثم عقَّبَت: «لا أفهم مقصدك، يا سيدي.»

ابتسم لها ابتسامةً مُصطنَعة. وأردف: «أوه، أنا متأكد أنكِ تفهمين ما أرمي إليه. فتاة ذكية مثلك لا بد أنها تفهم.»

قالت له وهي تتحامل على نفسها لمواجهة نظراته: «أنت تُداهنني.»

قال القس بحدة: «لم يكُن هذا ما يرمي إليه أخي. يجب أن تُبدي الاحترام.»

ضحك العمدة. ثم صدر عنه صوت أجوف وقبيح. قائلًا: «أنتِ تعرفين، كما أعرف، أنه لا يحق لأية امرأة أن تمتلك أرضًا.»

قالت آنا: «ولكن تُستثنى بعض الحالات. أمي تحتفظ بالأرض على سبيل الوصاية حتى يبلغ شقيقاي سِن الرشد.»

«وهذا لن يحدث قبل أربع سنوات.»

أخذ يُحدِّق كلٌّ منهما في الآخَر. بإمكان العمدة أن يسمح لأُمِّها بالاحتفاظ بالأرض — معظم الأرامل يُسمح لهن بذلك — إلا أن آنا كانت تعرف أنهم لا يستطيعون جمع المال من أجل الرشوة. إذا كان هذا ما يريده.

أخرج العمدة قُبعتها القشية من خلف ظهره. اتسعت عينا آنا في دهشة.

وقال لها: «هل هذه تخصُّك؟»

تظاهرت آنا بأنها تُلقي نظرة. ثم أردفت: «ربما تخصني يا سيدي. لقد فقدتُ قُبعتي قبل بضعة أيام.»

«أين؟» انطلق السؤال بسرعةٍ وحِدَّة كالسهم.

لم تكُن آنا مُتيقنة حيال ما يدور الأمر حوله؛ لكنها حافظت على نبرة صوتها ثابتة. لم تكُن راغبة في الإفصاح بأي شيء.

«في غمار حزني على وفاة والدي، كنتُ أتجوَّل على الجزء السفلي من المنحدرات السفلية بالقرب من بساتين الكروم الخاصة بنا. من أجل تصفية ذهني من الأفكار. لقد أسقطتها حتمًا آنذاك.»

ضيَّق العمدة عينَيه. وسألها: «ليس في منطقة أعلى من ذلك على الجبل؟»

حينذاك فهمت آنا. لا بد أن رجاله قد وجدوها في المنطقة الجرداء الخالية من الأشجار، ولا بد أن هذا أزعجه لسببٍ ما. ولكن لماذا؟ نظرت آنا إلى أُمها وسمِعَتها وهي تحرِّك مسبحتها.

قالت آنا: «كلَّا يا سيدي. يجب عليَّ البقاء بالقرب من المنزل. لأكون على مقربةٍ من أمي حين تحتاج إليَّ.»

باغتها بسؤال غيَّر مجرى الحديث: «رسالة الانتحار التي تركها والدك. أما زالت معكِ؟»

شعرت آنا بأن ساقَيها بدأتا ترتجفان، إلا أنها تمالكت نفسها ووقفت بثبات. قالت كاذبة: «ليست معي يا سيدي. أحرقتُها لأُخفِّف عن أُمي وطأة الألم.»

أطال العمدة النظر إليها لدقيقة، ثم وضع القبعة على الطاولة.

«قبل انتحار والدك ببضعة أيام، سمعه البعض يخوض في حديث متهوِّر. وهو ما أثار المشكلات بعد ذلك.»

سمعت آنا أُمَّها تتململ في جلستها.

تابع العمدة حديثه قائلًا: «بالطبع، كان ينشر الأكاذيب. ويحثُّ الناس على مغادرة البلدة. ويدَّعي أن الجبل الأسود سيثور. ألحق هذا بالتجارة ضررًا بالغًا. فإذا لم تتمكَّن السفن من الرسو في الميناء، ستعاني الجزيرة بأكملها.»

صاحت آنا قبل أن تتمالك نفسها قائلة: «ولكن ماذا لو كان محقًّا؟ جميع العلامات متحقِّقة. يجب أن نحذِّر الناس.»

أشار العمدة بإصبعه نحوها. وأردف قائلًا: «لا تقعي في خطأ ترديد هذه الأكاذيب، آنسة بيريز. لا سيما أن موضوع أرضكِ قيد النقاش.»

حينذاك أدركت آنا الحقيقة. لم يكُن راغبًا في المال وإنما كان راغبًا في شراء صمتها. سيسمح لهم العمدة بالبقاء ما دامت لن تنبس ببِنت شفة. كان يتعيَّن عليها أن تلتزِم الصمت حيال وفاة والدها وحيال التغييرات التي طرأت على الجبل.

واستطرد قائلًا: «أتفهمين؟»

رفعت آنا رأسها وحدَّقَت في عينَيه مباشرة. وأردفت: «أجل. فهمت.»

وما إن أدركت أُمها أن ثمَّة صفقة عُقدت حتى أمسكت بيد القس.

قالت: «باركك الرب، أبانا. شكرًا لك، شكرًا لك.»

وضع الكاهن يده البغيضة على رأس السيدة بيريز. ثم قال: «الرب يرعى أولئك الذين يُخلِصون في خدمته. سأصلِّي من أجلك.» ثم نظر إلى آنا. وأردف: «سأُصلِّي من أجلكم جميعًا.»

الفصل الثاني عشر

وبعدما غادر الرجلان، ظنَّت آنا أن ساقَيها قد تنهاران في أي لحظة.

بالتأكيد، كانت خائفة؛ ولكن شعور الغضب غالَبَها. أخذت تستعرض الأحداث في ذهنها. ولذا، تملَّكَها الندم بسبب عدم الدفاع عن والدها؛ ولكنها كانت تعلم أنها ليس أمامها خيار آخَر إن كانوا بصدد أن يُطرَدوا من أرضهم.

قالت والدتها باكية: «أنا آسفة. لم أستطع منعهم من الدخول.»

قالت آنا وهي تُطوِّق كتفَي والدتها بذراعها: «ليست غلطتك، يا أمي. ليست غلطتك.»

الْتَقطَت آنا قُبعتها.

قالت أُمها في ذُعر: «إلى أين تذهبين؟»

«إلى الميناء لأحضر بابلو وكارلوس. سأرسلهما ليجلسا معكِ بينما أبحث أنا عن أنطونيو.»

هزَّت أُمُّها رأسها. «لا، لا. المشكلات ظهرت عندما بدأ والدكِ يستمع إلى أنطونيو. إنه يجلب النحس على هذه الأسرة.»

جثَتْ آنا على ركبتَيها وأمسكت يدَي أُمها بين يدَيها. وقالت: «إذا كان أبي وأنطونيو على حق — وأعتقد أنهما كذلك — فلا يُهِم ما يظنُّه القس، أو ما يقوله العمدة. إذا ثار الجبل الأسود، سيُباد كل شيء. أرضنا، هذا البيت، بل وحتى البلدة بأكملها. يجب أن نفعل شيئًا.»

صاحت والدتها قائلة: «لم يحدث ذلك قطُّ. كان والدكِ دائمًا يتحدَّث عن ثوَرَان الجبل، ولكنه لم يحدث. كان مخطئًا.»

قبَّلَت آنا أُمها. وأردفت: «سأعود في أقرب وقتٍ ممكن.»

تجمَّعَت حشود كبيرة على درجات سُلَّم المجلس البلدي. كان من بينهم صيادون، وربات بيوت يحملنَ سلال تسوُّق مُمتلئة عن آخِرها بمشتريات، وتجار، وأطفال يلعبون بالأطواق الخشبية في الشارع. بالإضافة إلى عددٍ قليل من البحارة، الذين نزلوا توًّا من القوارب المُتجهة إلى المُستعمرات، يُثرثرون بالهولندية والإنجليزية. تساءلت آنا في نفسها عما يحدث.

عندما دلفت إلى الساحة، رأت أخوَيها، بابلو وكارلوس، يجلسان يُراقبان الموقف من عند السور المجاور للكنيسة. وقف رودي المسكين على مسافةٍ بعيدة قليلًا. لوَّحت لجذب انتباههم، ولكن لم يلتفت إليها أيٌّ من الصبية. ثم رأت الأرملة سيلفا في مقدمة الحشد فذهبت للانضمام إليها.

سألتها آنا: «هل رأيت أنطونيو؟ أريد أن أتحدث إليه. إنها مسألة عاجلة.»

أجابت الأرملة سيلفا، وهي تُشير إلى هيئة الشخص الهزيل الذي يرتدي معطفًا أسود طويلًا وسروالًا فضفاضًا يصعد درجات السلم المؤدية إلى واجهة المجلس البلدي، قائلة: «سيتعيَّن عليكِ الانتظار. سيتحدث.»

أخرجت آنا رسالة والدها من جيبها وعرضتها على العجوز. ثم علَّقَت قائلة: «هل تستطيعين رؤية هذه الأحرف الستة؟»

هزَّت الأرملة سيلفا رأسها. وقالت: «لا أفهمها.»

أشارت آنا. «هل ترينها الآن؟ إذا رتبتها ترتيبًا صحيحًا؟ ب – ل – ا – ن – ك – ا.»

حدَّقَت العجوز، ثم أومأت برأسها. «أجل.»

«أترين الآن كيف أخفى والدي الاسم؟»

قالت آنا، وهي تُشير إلى الخطاب: «أعتقد أن هذا هو السبب في مقتل والدي. أعتقد أنه رأى شيئًا من الجبل.» صمتت برهة. ثم تابعت: «أتى العمدة والقس إلى منزلنا في وقت سابق يسألان عن هذا الخطاب.»

اتسعت عينا الأرملة سيلفا من هول الصدمة. ونصحتها قائلة: «يجب أن تتوخَّي الحذَر يا آنا.»

لم تسنح لهما الفرصة ليستطردا في حديثهما أكثر من ذلك. كان أنطونيو قد وصل إلى أعلى الدرج وأخذ يُصفِّق بيدَيه لجذب انتباه الحشد.

«رفاقي، هل ستستمعون إليَّ؟»

سار الحشد بخُطًى متثاقلة.

حاول أنطونيو جذب الانتباه مرَّة أخرى: «أيها الرفاق، أهل الجزيرة الكرام. هل ستستمعون إليَّ؟»

صاح رجل مُلتحٍ في المقدمة. قال: «دعونا نسمع ما يريد أن يقوله.»

خيَّم الوجوم على الحشد. وغشِيَهم الصمت واحدًا تلو الآخر.

قال أنطونيو، وهو يرفع صوته حتى يتمكن الواقفون بالخلف من سماعه: «شكرًا لك. أيها الرفاق، يَسوءُني أن أقول هذا، ولكن نحن يَحيق بنا خطر.»

قال أحدهم مازحًا: «بسبب الضرائب الإسبانية فحسب!»

تابع أنطونيو حديثه. وقال: «نحن نعيش في ظل الجبل الأسود.»

صاح صبي الجزار قائلًا: «نحن نعرف ذلك!» فضحك الجميع.

واصل أنطونيو: «ظلَّ يَحمينا لسنوات. منحنا تُربة خصبة لنزرع الخضراوات والفاكهة. وبساتين كرمات العنب. لم يحدث أن عانَينا مثلما عانى الآخرون في أنحاء أخرى من الجزيرة.»

قال الرجل الملتحي: «وعسى أن يستمر ذلك!»

بسط أنطونيو ذراعَيه. رأت آنا أنه يبدو كالواعظ وشعرت أن الحشد يتفاعل معه.

تابع حديثه: «الأمور تتغير. أنا أعيش فوق الجبل الأسود. لاحظتُ على مدار أسابيع الآن كيف تنمو النباتات، وتعيش الحيوانات، وتتغير الأجواء. الأرض نفسها غير مُستقرة. وقعت هزات أرضية.»

صاح صبي الجزار: «الهزات الأرضية موجودة دائمًا.»

قال صديقه هازئًا: «هذا يحدث معك أنت فقط عندما تُسرف في شرب البيرة ليلة السبت»، فهلَّل الحشد.

رفع أنطونيو صوته. «ما تقوله صحيح يا صديقي. هناك دائمًا هزات أرضية. الطبيعة تتغيَّر مع تغيُّر الفصول. نحن جميعًا نعرف هذا.» والْتَفتَ ليرنو إلى الجبل الأسود، ثم عاد ليواجِه الحشد مرة أخرى. «لكن هذه المرَّة مختلفة. وسادتنا، أصحاب الأمر والنهي في هذه البلدة، يعرفون هذا. كان هناك العديد من الإفادات ومن أشخاص مختلفين. ولكنهم يُخبرونكم بالعكس. يقولون إنه لا يُوجَد خطر، ولكنهم مخطئون.»

صاح رجل ذو وجه مُمتقِع: «لا تصدِّقوا كلمة منه!»

كانت آنا تعرفه بكونه واحدًا من أوفى التابعين للقس. كان خيَّاطًا ثريًّا، يشير دومًا ببنانه إلى الآثام. ويتحدَّث بسوء عن النساء اللاتي يَخرُجن بشَعر مكشوف بلا غطاء رأس، أو الرجال الذين يُسرفون في معاقرة الخمر، أو الأطفال الذين لا يجلسون بهدوء في الكنيسة. لقد نال بابلو منه الأذى أكثر من مرة.

قال أنطونيو: «أتُنكر الأدلة التي تراها بأم عينك؟ ألا ترى الرماد الرمادي؟ ألا ترى الغيوم الرمادية فوق الفوهة؟ الرجال الذين يحكمون هذه البلدة يعرفون أن الخطر يَحيق بنا. ومع ذلك، يُنكرون ما يحدث بسبب أطماعهم.»

قال الخيَّاط عاقدًا ذراعَيه أمام صدره: «لقد رأينا تغييرات مثل هذه من قبلُ. ولم يحدُث شيء. ستُدمر أعمالنا التجارية إذا ظللتَ على موقفك هذا. العمدة معه كل الحقِّ في حماية تجارتنا. ويعود إليه الفضل في ثراء بلدتنا.»

أدركَت آنا أن انتباه الحشد يتشتَّت بعيدًا عن أنطونيو.

قال أنطونيو، رافعًا صوته ليسمعه الحشد: «احتفظوا، يا رفاقي، بأكبر كميةٍ مُمكنة من المياه وخزِّنوها وادَّخِروها. فحيثما ينزل الرماد، لن يكون هناك ماء صالح للشرب. اقلبوا قواربكم رأسًا على عقب وإلا ستمتلئ بالرماد.»

«لن تُخيفنا!»

واصل أنطونيو حديثه: «عندما يثور الجبل الأسود لن يكون هناك مُتسع من الوقت.»

«هذا إذا ثار من الأساس!»

نظرت آنا إلى أنطونيو وهو يقف وحده — بهيئة نحيلةٍ متشحة بالسواد — ثم حوَّلَت بصرها إلى حشد الرجال والنساء الواقفين أمامها أسفل الدرج.

صاحت آنا من مؤخرة الحشد قائلة: «يجب أن نستمع إليه. لقد رأى هذه الأمور بأم عينِه. ويعرف ما يتحدَّث عنه!»

أعربت الأرملة سيلفا عن دعمها. وقالت: «نعم، دعوه يُنهي حديثه. أريد أن أسمع ما رأى.»

رأت آنا الخياط يهز رأسه باشمئزاز، إلا أن الهدوء خيَّم على معظم الناس مرَّة أخرى.

استهلَّ أنطونيو الحديث قائلًا: «حدث هذا شمال شرق الجزيرة. قبل نحو عامَين. كانوا قد اعتادوا على هزات جبالهم مثلما اعتدناها. ولم يتوقَّعوا أن تتغيَّر الأحداث، مثلنا تمامًا. كان صباح يوم عادي، مثل يومِنا هذا. كانت السماء بيضاء، والشمس ساطعة وراء السحاب، ولم تهبَّ أية رياح. حينئذٍ بدأ البركان ينثر غبارًا دقيقًا، ثم غبارًا أكثر كثافة. يُسمى حجر الخُفاف، أشبَه بالحجر المحروق. ولكن ليس أسود فاحمًا. إنه حجر أبيض يُعرِّضك للاختناق إذا دخل في فمك وأنفك.»

قالت امرأة: «كثيرًا ما ينبعث غبار أبيض من الجبل.»

واصل أنطونيو حديثه. قائلًا: «بدأ الأمر بالغبار، ثم أصبحت ذرَّات الغبار أكثر سُمكًا، حتى وصل حجمها إلى حجم حبات القمح أو الأرز. ثم بدأ الضجيج، كثير من الضجيج،

أصوات انفجارات مثل صوت إطلاق قذيفة من مدفع، ولكن تحت الأرض. ثم بدأت تتساقط قِطَع أكبر من السماء، بحجم قبضة اليد. ولو كنت تعيس الحظ، فإنها تكسر القراميد فوق سقفك. حاوَلَت كل الحيوانات الهروب من أقفاصها. إنها تدرك جيدًا.»

استشعرت آنا أن الاضطراب يزداد أكثر بين الحشد. أرادت أن يواصل أنطونيو كلامه.

صاح أنطونيو: «ثم هبط الظلام، لم يحدث الأمر دفعة واحدة، ولكن رويدًا رويدًا، امتلأت السماء بالرماد وكسفت الشمس حتى اختفت تمامًا. لدرجة أنك لا تستطيع أن تتبيَّن يدك أمام وجهك. اختبأ بعض الناس داخل منازلهم. وهرب الآخرون إلى قواربهم. وركع البعض الآخَر على ركبتَيه في الشوارع ليُصلُّوا أو يبكوا. وأخيرًا، انبعث صوت وكأنه يُنذِر بنهاية العالم وتفجَّر الجبل. بدأت النيران تنساب على المنحدرات، كرة متدحرجة من النيران، كنهرٍ بطيء الجريان، ولكن على هيئة صخرة حمراء متوهِّجة.»

خيَّم الصمت للحظة على المكان. كانوا يمكنهم سماع طيور النورس والطيور البحرية في الميناء من بعيد.

ثم، فجأةً، بدأ الجميع يتحدَّثون، ويصيحون، ويتجادلون فيما بينهم في آنٍ واحد. علَت أصوات كثيرة جدًّا وملأت الأجواء من حولهم.

قال أحدهم: «الجزء الشمالي الشرقي مُختلف عن هنا.»

وردَّ آخَر: «هذا لن يحدُث لنا أبدًا. الجبل الأسود خامل دائمًا.»

وعلَّق ثالث: «كفاك اختلاقًا!»

صاح أنطونيو مجاهدًا ليجهر بصوته: «قالوا الشيء نفسه في الجزء الشمالي الشرقي. غير أن نهرًا من النيران انساب عبر الوادي باتجاه البلدة. أباد الجميع عن بَكْرةِ أبيهم، سواء مَنْ خشيَ الجبل أم مَن ظنَّ أنه لا يُشكِّل خطرًا. اختفت تلك البلدة من على وجه الأرض. جرَفَها نهر النيران إلى البحر بعد أن احترقت بالكامل.»

صاح الخياط من مؤخرة الحشد قائلًا: «ليس لديك أي دليل على تغيُّر الأحوال.» في تلك اللحظة، كان قد جمع المزيد من الناس إلى صفِّه.

وقبل أن تُمهِل آنا نفسها الوقت لتفكِّر فيما ستئول إليه الأمور إذ أفصحت عن رأيها، سمعت نفسها تصرخ. «بلى لدَيه دليل.»

أحسَّت أن الناس يُولُّون وجوههم شطرها.

فأردفت: «كما أنني رأيتُ ذلك بأم عيني. الهزات الأرضية أقوى على سفح الجبل. وتستمر لفترةٍ أطول. والماء مُسمَّم، والأرض مفرطة السخونة. لدى أنطونيو دليل ...» توقَّفَت عن الحديث لبُرهة. ثم أردفت: «كما كان لدى والدي دليل.»

صاح الخياط قائلًا: «كان والدك جبانًا وآثمًا.»

رأت آنا بابلو يقفز السور، ثم تبِعَه كارلوس. وفي لمح البصر، رأت آنا كل شيءٍ كأنها لوحة تُصوِّر ما يحدث: القلق علا وجه الأرملة سيلفا، هيئة أنطونيو النحيلة المُتشحة بالسواد أعلى الدرج، ثم جاء جنود العمدة، من جميع الجهات في الساحة، ليُفرِّقوا الحشد.

كانت آنا بين خيارين لا ثالث لهما. تعيَّن عليها إما أن تضع عائلتها فوق كل شيء، وتُمسك لسانها، وإما أن تفعل ما تراه صوابًا. بغض النظر عما قد يحدث، أدركت آنا أنها يجب عليها مواصلة مسيرة والدها. كان هذا ما سيُريده.

قالت وهي تدسُّ خطاب والدها في يدي الأرملة سيلفا: «خذي هذا.» ثم تقدَّمَت إلى الأمام.

صاحت آنا قائلة: «قُتل والدي لمنعه من المُجاهرة برأيه. يجب أن نُغادر البلدة. قبل أن يفوت الأوان.»

شعرت آنا بأيادٍ خشِنة تُمسكها وتسحبها إلى الخلف ليختلَّ توازُنها. فانطلق بابلو وكارلوس نحو الجنود، لكنهما تلقَّيا الضربات مثل الذباب لإبعادهما عن الطريق.

صاح رودي، محاولًا الإمساك بذراعها: «دعوها تذهب!» وبعد ثوانٍ، كان هو أيضًا مُسجًّى على الأرض والدم ينزف من شفته.

في تلك اللحظة، فُرِض حصار حول الحشد. أشهَرَ الجنود بنادقهم ليمنعوا أي شخصٍ من المقاومة.

قالوا لهم آمِرين: «عودوا إلى بيوتكم! هذه أوامر العمدة. سيُلقَى القبض على أي شخصٍ يبقى في الساحة.»

اقتِيدَت آنا إلى أعلى درج سُلَّم المجلس البلدي. ورأت أن أنطونيو قد جرى اعتقاله أيضًا. كانت ذراعاه مرفوعتَين خلف ظهره وأنفه ينزف. بَيْد أن آنا كانت على يقينٍ بأنهم فعلوا الصواب. حاولوا تحذير البلدة. لقد أخرسوا والدها، قطعًا، وحاولوا ترويعها. ولكنها قاومت.

بينما كانوا يَجُرُّونها إلى الداخل، سمعت جرس الكنيسة يرنُّ مُعلِنًا موعد صلاة الغروب.

الفصل الثالث عشر

تساءل كارلوس: «ماذا سنفعل؟»

ثم نظر إلى أخيه. كان بابلو دائمًا يعرف ما الذي يجب فعله. لكنه لم ينبس ببنت شفة.

قال رودي: «لديَّ فكرة.»

ردَّ عليه بابلو: «أنتَ! وهل يُرجى منك نفع؟!»

ولأول مرة، لم يتراجع رودي. فأردف قائلًا: «هل لديك خطة؟»

حدَّق في بابلو، إلا أن بابلو، هذه المرة، أشاح بنظره بعيدًا.

قال كارلوس: «تكلم.» بدا خائفًا.

قال رودي: «ثمة طريق يؤدي إلى المجلس البلدي عَبْر الكنيسة. يمكننا أن نعرف أين تُحتجز آنا وبعد ذلك، حسنًا ...»

«ماذا، نخرجها؟ هذا هراء ...» قالها بابلو، ولكن كارلوس كان يستمع.

فسأله: «هلا أريتنا إيَّاه، من فضلك؟»

لم يبتسِم رودي. لم يرغب أن يكون مثل بابلو. كان دائم السخرية ويظن أنه أفضل من الجميع. ولكن ربما لم يكُن كارلوس بهذا القدْر من السوء. كان مُتحمسًا لأنه بدا أن كارلوس يثق به.

جاء صوت دَوِيٍّ من بعيد. بدا كأنه هزيم رعد، لكن لم يتأكد الصبية منه بعدُ. أخافتهم كلمات أنطونيو. لقد تحوَّلَت السحب الرمادية فوق الجبل إلى اللون الأسود. شعر كل صبيٍّ منهم أن الأرض تهتز تحت قدمَيه، لكنه لم يتفوَّه بكلمة واحدة. أرادوا أن يحفظوا ماء وجوههم أمام الآخرين.

قال رودي: «سيتعيَّن علينا الانتظار حتى تنتهي صلاة الغروب ويخلد الجميع إلى النوم. ثم سأريكما إيَّاه.»

بدأ الضوء يتلاشى في السماء. انتظرت الأرملة سيلفا حتى غادر آخِر الجنود المُرابطين في الساحة قبل أن تذهب لتتفقَّد والدة آنا.

أسرعت الأرملة سيلفا الخُطى عَبْر الشوارع الخلفية للبلدة، مُتخفية في جنح العتمة، لتصعد المنحدر المؤدي إلى أرض آل بيريز. وبحلول الساعة السابعة، كانت تطرق الباب الخلفي لمنزلهم.

نادت: «سيدة بيريز؟ هلا سمحت لي بالدخول؟»

لم يكن هناك صوت.

كانت الأرملة سيلفا تؤمِن بعادات الجزيرة وتقاليدها. فالأخلاق الحميدة تقتضي عدم دخول منزل امرأة أخرى بدون دعوة منها. لكن لم تكُن هذه أوقاتًا عادية.

أدارت المقبض ودخلت وقد تملَّكَها شعور بغيض. كانت الغرفة معتمة وقد أُغلقت مصاريع النوافذ رغم رطوبة الجو في المساء. كان هناك صوت طنين غريب — أدركت أنه طنين ذباب — ثم بدأت دقات قلبها تتسارع أكثر. شعرت أن ثمة خطبًا ما.

نادت مرة أخرى: «سيدة بيريز، هل أنتِ هنا؟»

ثم سرعان ما وضعت يدها على فمها.

همست وهي تُشير بإشارة الصليب على صدرها: «رُحْماك يا رب.»

على مستوى نظرها، رأت زوجَين من الأحذية السوداء يتأرجحان في الهواء ببطء، وأصابع القدمَين مُتدلية نحو الأرضية المبلطة. ثمة جثة مُعلَّقة في الهواء الساكن. كانت هذه جثة السيدة بيريز، وقد تدلَّت يداها الشاحبتان بجوارها. أرغمت الأرملة سيلفا نفسها على النظر لأعلى. كان ثمة حبل غليظ مُلتف حول العارضة الخشبية. الْتَوى رأسها نحو أحد جانبيها حيث كُسرت رقبتها، ولكن وجهها ظلَّ مخبوءًا وراء وشاحها. شعرت الأرملة سيلفا بالامتنان لأنها على الأقل عُفِيَت من بشاعة المنظر.

بدا الأمر وكأن السيدة بيريز قد أنهَت حياتها أيضًا. هل كان هذا مفاجئًا؟ لقد كافحت من أجل التأقلم بعد وفاة زوجها. نظرت الأرملة سيلفا حولها بحثًا عن رسالة، لكنها لم تجد شيئًا.

ثم، عاودت التفكير مرة أخرى. فعلى الرغم من كل الخسائر التي تكبَّدَتها السيدة بيريز والمآسي التي عايشتها في حياتها، فإنها لم تفقد إيمانها الكاثوليكي مطلقًا. ومهما

اشتد عليها البلاء، ما كانت لتنتحِر أبدًا. فمن وجهة نظرها، كانت هذه الفعلة خطيئة مُميتة وذنبًا عظيمًا. من شأنها أن تحرمها من دخول الجنة.

إلا أنه ثمة شيء أكبر من ذلك. استطاعت الأرملة سيلفا أن تلاحظ الخطأ الذي اقترفوه بأيديهم. تراصَّت جميع الكراسي الستة حول طاولة المطبخ. فلو أن السيدة بيريز قد شنقت نفسها، لتعين عليها أن تقف على أحد هذه الكراسي وتركُله من أسفلها.

تحسَّسَت الأرملة سيلفا جيب مِئزرها بيدها. كانت آنا قد قذفت إليها خطاب والدها عندما اقترب الجنود منها. من الواضح أنها كانت مُحقَّة في تصرُّفها هذا. كانت شكوك آنا في محلها. هذه جريمة قتل. لقد قُتل والدا آنا كلاهما. أولًا والدها، ثم الآن والدتها.

ولكن ما الذي رآه توماس بيريز تحديدًا؟ ما الذي ظنوا أنه ربما قد أخبر زوجته به؟

غمغمت الأرملة سيلفا بالدعاء ورسمت الصليب على صدرها مرة أخرى. كرهت أن تترك السيدة بيريز على وضعها هذا؛ ولكن كان يتعيَّن عليها طلب المساعدة. عجزت عن إنزال الجثة بمفردها. فغادرت الأرملة سيلفا مثلما جاءت تاركةً كل شيء كما وجدَتْه. بعد أن كفنت السيدة بيريز، كان يتعين عليها إيجاد طريقة للتحدث إلى أنطونيو. أينما كانوا قد اقتادوه. وبعد ذلك، وبمعونة الرب، سيتعين عليها البحث عن آنا وإخبارها أن والدتها ماتت.

سَرَت البرودة في أوصالها. ماذا لو وقع مكروه لآنا أيضًا؟

في الأفق البعيد فوق الجبل، تصاعدت غيمة من الرماد الأسود في طبقات الهواء الساكن. نظرت الأرملة سيلفا لأعلى. كان الوقت يداهمهم. ولذا، أسرعت.

جلس رودي وكارلوس وبابلو في صمتٍ على قارعة الزقاق المار خلف الكنيسة، وهم يُنصتون إلى المُصلين المغادرين بعد أداء صلاة الغروب. ولمدة ساعة، مكثوا كأن على رءوسهم الطير.

وبمجرد أن تأكد من أن الطريق خالٍ، وقف رودي وأشار لبابلو وكارلوس كي يتبعاه. فوجئ رودي بأنهما نفَّذا ما قاله بدون تذمُّر، وهو ما أسعده. تسلل الصبية الثلاثة إلى الكنيسة، شعر كلٌّ منهم بالتوتر؛ إلا أنه حاول إخفاء ذلك. تلفَّت رودي بعينَيه يمينًا ويسارًا، ليتأكد أن القس ليس موجودًا في المكان. إلا أن صحن الكنيسة كان خاليًا والصمت يُخيِّم على الأجواء. لم يكُن هناك شيء سوى رائحة البخور.

قادهما رودي إلى المُصلَّى الجانبي. فهناك مذبح خاص، حيث يُصلِّي الناس من أجل الصيادين والبحارة، مُزدان بتمثالَين للقديس فرانسيس والقديس نيكولاس. وخلف المذبح

كان هناك مكان صغير وهادئ، يكفي للاختباء فيه عندما يكون العالَم قاسيًا. وكثيرًا ما اختبأ رودي هناك.

وراء هذا المكان، وقف باب خشبي صغير.

قال رودي: «صُنع هذا من أجل القس في الأيام الخوالي، لكي يتمكَّن من التحرُّك والانتقال بين الكنيسة والمجلس البلدي دون أن يراه أحد. ويقود إلى الحديقة الخاصة الموجودة في الجزء الخلفي من المبنى. ولا يُوجَد هناك حرَّاس أبدًا.»

تطلَّع الصبية الثلاثة إلى الباب الخشبي.

«يُمكننا الاختباء في الحدائق حتى يحلَّ الظلام. إنها حدائق خاصة. ولا أحد يدخل هناك.»

همس بابلو، وقد استعاد طبيعته قليلًا: «ثم ماذا بعد ذلك؟ ماذا سنفعل؟»

حدَّق رودي في عينَيه مباشرةً. وأردف: «سنُنقِذ آنا. وأنطونيو كذلك.»

الأربعاء، ٥ مايو ١٧٠٦

يوم ثوران البركان

الفصل الرابع عشر

احتُجزت آنا في الطابق الأول من المجلس البلدي.

كانت قد اقتيدت إلى هناك من ساحة البلدة قبل ساعات. وقاموا بتفتيشها وحبسها بالداخل؛ ولكن لم يَمْسَسها سوء. يبدو أنهم نسوها. كانت تُحصي الساعات من خلال عدِّ مرات قرع جرس الكنيسة. الآن حلَّ الظلام، بالرغم من تسلُّل أشعة رقيقة من ضوء القمر عبر المصاريع الخشبية.

ومن بعيد، استطاعت أن تسمع الجبل الأسود يدوي.

في البداية، ذرعت آنا المكان ذهابًا وإيابًا، لتُحدِث الألواح تحت قدمَيها صريرًا. أخذت تجمع أجزاء اللغز في ذهنها. تملَّكَها شعور بالغضب، ثم الخوف. تملَّكَها شعور بالجوع والعطش. أما الآن فقد شعرت بأنها متعبة بكل بساطة.

كرِهت التفكير في أن والدتها وشقيقَيها في بيتهم الأبيض الصغير لا يعرفون شيئًا عما يحدُث لها. تمنَّت أن تكون الأرملة سيلفا قد ذهبت للجلوس معهم. ثم تذكَّرت آنا مشهد الدم الذي سال على وجه أنطونيو وتمنَّت أن يكون بخير. لم يُؤذِها الجنود، ولكنها كانت تخشى أن يكونوا أقلَّ لطفًا معه. هل احتُجز أيضًا في المجلس البلدي؟ أم اقتادوه إلى السجن الموجود في الميناء؟

سمعت آنا دقات الأجراس مُعلِنة الساعة العاشرة.

على الأقل، وهي بمفردها في هذه الساعات الطويلة، كان أمامها مُتَّسع من الوقت لتتفكر في الطريقة والسبب وراء مقتل والدها. كانت «الطريقة» بسيطة. خمَّنَت أنه تلقَّى ضربة أولًا. وبعد ذلك، كان من السهل على أي رجلَين أن يُرتِّبا المشهد ليبدو موته انتحارًا. لم تكُن تظن أن العمدة من شأنه أن يفعل هذا بنفسه؛ إلا أنها كانت واثقة حينذاك من أن الجريمة وقعت بمعرفته وبناءً على أوامره.

أما تخمين «السبب» فكان أصعب؛ لكنها رأت أنه يتعيَّن عليها أن تتفكر فيه أيضًا. لم يكُن بسبب تحذيراته بخصوص الجبل الأسود. وإنما بسبب أن والدها، خلال زياراته لفوهة الجبل لتفقُّد التغييرات، رأى شيئًا لم يكُن ينبغي أن يراه. كان هذا أكثر منطقية. الاعتداء على كرمات العنب الخاصة بهم، والشائعات حول مشكلاتهم المادية، ثم مَقتله؛ كلها أحداث وقعت لأنه تواجد على الجبل في اللحظة غير المناسبة.

من فوق مكانٍ مرتفع جدًّا، استطاع والدها أن يشاهد ما يحدث في البلدة. بل وما يحدث في البحر أيضًا. لقد عُثر على نظارته وحقيبته الجلدية إلى جوار جثته. فالاسم الذي ذكره في رسالته لم يكُن اسم شخص، وإنما اسم سفينة. سفينة غرقت قبالة الساحل الشمالي الغربي لتينيريفي في يناير.

ففي يناير الماضي، عندما هبَّت أسوأ العواصف الشتوية قبالة المحيط الأطلنطي، غرقت سفينة لا بلانكا ليس بمكانٍ بعيد عن الميناء. وغرق جميع الرجال على متنها. وغرق الكنز مع السفينة.

كانت السفينة البيضاء — لا بلانكا — واحدة من أهم السفن الإسبانية، المُحملة بالخيرات من الفضة واللؤلؤ، والحرير والتوابل. كان للسفينة خمسة صوارٍ ذات أشرعة بيضاء سامقة. وعند مؤخرة السفينة، رفرف علَم إسبانيا الملكي ذو اللون الأحمر والذهبي. كان هذا جزءًا من كنز أسطول ملك إسبانيا. وكانت قد أبحرت معها عدة سفن حربية لحماية الشحنة الثمينة — سبائك الذهب، والجواهر، والسلع الثمينة المتجهة جميعًا إلى ديارهم في الشرق.

وفي اليوم التالي، عندما تحسَّن الطقس قليلًا، أرسل العمدة بعثة إنقاذ إلى البحر المُضطرب. كان الميناء محميًّا بسور عالٍ. وبأوامر من العمدة، لم يُسمح لأحد بالوقوف على سور المرفأ ذلك اليوم. كانت الأمواج عاتية جدًّا، والبحر شديد الاضطراب. أو على الأقل، كان هذا السبب المُعلن. ولكن الآن أدركت آنا أن السبب الحقيقي هو ألا يرى أحد ما كانت بعثة الإنقاذ تنجزه.

لم تستعِد البعثة أي شيء.

وبعد أسبوع، عقد العمدة اجتماعًا في المجلس البلدي لرفع تقرير عن الوضع. وفشل في توضيح سبب غرق السفينة — رغم أنها كانت متينة البناء — ولم تصطدم بالصخور. ولم يكُن هناك سفن للعدو في المنطقة القريبة. ولم يتمكن أحد من تفسير سبب فقدان السفينة وطاقمها بالكامل.

الآن، لم تستطع آنا أن تُصدق إلى أي مدى كانت غافلة.

لم يكُن بالإمكان رؤية أي شيءٍ من على الشاطئ؛ كان سور المرفأ يَحُول دون ذلك. ولكن إذا اعتلى والدها الجبل في ذلك اليوم من يناير، لربما كان قد رأى شيئًا. كان يحمل معه نظارته المُعظِّمة دائمًا. وكان بمقدوره أن يرى ما حدث للسفينة. وما حدث للكنز كذلك.

لقد تغيَّر والدها بعد حادثة غرق السفينة. وبدأ يطرح الأسئلة داخل الميناء وفي البلدة حول سفينة «لا بلانكا». ولم يمضِ وقت طويل حتى تعرَّض بستان كرمة العنب للاعتداء، ثم سَرَت الشائعات بأنهم مدينون.

وفجأةً، في وسط هدوء زنزانتها، سمعت آنا صوتًا. كان هذا صوت طرقات. هبَّت واقفة على قدمَيها. هل عاد الجنود أخيرًا؟

سمعت الصوت مرة أخرى وأدركت أنه يأتي من خارج النافذة. زحفت عَبْر الغرفة.

وتساءلت: «مَن الطارق؟»

جاء الرد: «هذا أنا.»

تعرفت على الصوت. «كارلوس!»

همس الصوت قائلًا: «هل يمكنك فتح مصاريع النافذة؟»

فتحت آنا المصاريع وحدَّقَت إلى الخارج في الظلام. لم يكُن باستطاعتها رؤية أي شيءٍ سوى قمة رأس أخيها. كان يحاول الوقوف متوازنًا على حافة ضيِّقة أسفل أسكفة نافذة. وأدناه امتدَّت الحديقة الخاصة في الجزء الخلفي من المجلس البلدي.

سألته: «كيف تسلَّقت لأعلى؟ الجدار عالٍ جدًّا.»

قال كارلوس رغم حشرجة صوته بسبب الجهد المبذول: «الأمر ليس صعبًا للغاية.»

سألته: «أين بابلو؟»

«مع رودي، يحاول العثور على أنطونيو. سمِعنا الحراس يتحدثون. أنطونيو ليس محتجزًا هنا. أخذوه إلى السجن الموجود في الميناء.» ثم توقف لبرهة. وسألها: «هل يمكنك التسلق إلى الخارج؟»

نظرت آنا لأسفل. قبل قليل، لم تكُن أبدًا لتتمرَّد على العمدة وقوانين البلدة. ولكن الآن اختلفت الأوضاع.

قالت آنا: «لا أعرف.»

ومن بعيد، كان هناك صوت ضجيج عالٍ. أشبَه بهزيم الرعد الحاد.

قال كارلوس: «أكره هذا الصوت.» كان يُوحي بأن صاحبه صغير جدًّا وخائف جدًّا. وأردف: «أشبه بصوت انطلاق قذيفةٍ من مدفع.»

استطاعت آنا أن ترى كيف توهَّجَت السماء فوق الجبل الأسود باللون الأحمر. ظهر فجٌّ أحمر عميق وسط السحاب. كان الوقت يُداهمهما.

«أنا قادمة.»

طوت آنا تنُّورتها الطويلة داخل ملابسها التحتية وأخذت نفَسًا عميقًا. ثم رفعت ساقها برشاقة إلى أسكفة النافذة وأنزلت نفسها إلى الحافة.

الفصل الخامس عشر

لم يعُد أنطونيو يعرف إلى متى سيظل صامدًا أمام ضرباتهم وأسئلتهم.

كان قد اقتيد إلى الزنزانة الموجودة في الميناء. بدأت مُعاناته عندما تبدَّل ضوء النهار وحلَّ الظلام محلَّه. لم يعُد لدَيه إحساس بالليل أو النهار. كان هناك فقط شعور بالألَم والاستراحات القصيرة بين نوبات الألَم. كانت عينه اليسرى مُغمضة ومتورِّمة وتغلغل مذاق الدم في فمه. كُسر أنفه وتخلخلت العديد من أسنانه.

شعر أنطونيو برأسه يُسحَب إلى الخلف.

«سأسألك للمرة الأخيرة. ماذا قال لك توماس بيريز؟»

جاهد أنطونيو ليتحدث. فأجاب: «لم يُخبرني بشيء.»

أعدَّ نفسه ليتلقى ضربة أخرى. كان مُوثَّقًا إلى كرسي، وكانت ذراعاه مُوثَّقَتَين بالعوارض الخشبية. هذه المرة، سُدِّدت القبضة إلى بطنه. توجَّع أنطونيو من الألم.

قال الرجل: «أنت تعلم أننا نحتجز الآنسة بيريز أيضًا، أليس كذلك؟»

اعتاد أنطونيو الصوت. لم يكُن هذا صوت العمدة نفسه، رغم أنه لم يُراوده أدنى شك في وجوده بمكانٍ قريب. وإنما كان هذا صوت أحد مُساعديه المُقربين. استطاع أنطونيو أن يشمَّ رائحة معطفه الجلدي الطويل. ومن أسفل غمامته، استطاع أن يرى بيادة الجندي.

سارعه بالرد: «إنها مجرد فتاة.»

«هي في السادسة عشرة من عمرها. ناضجة بما فيه الكفاية.» شعر أنطونيو بأن وجه الرجل يقترب منه أكثر. وأردف قائلًا: «وعُرِف عنها أن والدها كان يثِق بها.»

«أُقسم لك بحياتي أن بيريز لم يُخبرها بشيء.»

شعر أنطونيو بأن الرجل بدأ يلين. قال: «ستُسامحني إذا قلت لك إنني لا أُصدق كلامك بهذا الشأن.»

سمع همسًا، ثم سمع صوت العمدة.

قال: «أحضروا الفتاة إلى هنا، وسنرى ما تعرفه.»

«كلَّا!» صارع أنطونيو فوق الكرسي ليُحرِّر نفسه. ثم سمع وَقْع خطوات تَعبُر الغرفة وضحكات الجنود، وهو ما بثَّ الرعب في نفسه. فقال: «كلَّا، اتركوها وشأنها.»

تحسَّسَت آنا الحافة بأصابعها واقتربت من الأرض بقَدْر ما أمكنها. تعيَّن عليها أن تتحلى بالشجاعة وتترك نفسها لتسقط الأقدام الأخيرة التي تفصلها عن الأرض.

همس كارلوس إليها: «إننا على ارتفاع قامة رجلٍ فحسب.»

عدَّت آنا إلى ثلاثة، ثم تركت لنفسها العنان. وللحظة، كانت تسقط. ثم، شعرت بارتطام كاحلَيها وسقطت لتتدحرَج على الأرض.

قال كارلوس وهو يُساعدها على النهوض: «لا عليكِ. هذا لم يكُن سيئًا.» قالت آنا، مُمسكة بيده: «أنت أشجَع منِّي. يجب أن أذهب إلى أُمي. ستكون خائفة.»

قال كارلوس: «قالت الأرملة سيلفا إنها ستذهب وتجلس معها. كانت هذه فكرة رودي.»

تنفَّسَت آنا الصعداء. وأردفت: «جيد. سنذهب لتفقُّدهما بمجرد أن نُطلق سراح أنطونيو.»

صدر عن الجبل الأسود صوتٌ مدوٍّ آخَر. تقارب وقوع الانفجارات الصغيرة على فتراتٍ أقصر من ذي قبل. سمعت آنا كارلوس يلتقِط أنفاسه.

قال كارلوس: «آنا، ماذا سنفعل؟»

أجابته: «لنبحث عن الآخرين.»

قال بنبرة صوت خافتة: «كلَّا، أقصد إذا ثار الجبل البركاني.»

نظر كلاهما إلى أعلى. توهَّجَت سماء الليل حول الفوهة على نحوٍ أكثر شراسة. تواتر صوت وقوع الانفجارات الصغيرة على نحوٍ مُتكرِّر أكثر.

أمسكت آنا بيد أخيها. وقالت: «هيا نبحث عن الآخرين.»

الفصل السادس عشر

مكث أنطونيو وحيدًا في زنزانته، رغم أن الجنود وقفوا على أُهبة الاستعداد خارج الباب.

حاول فكَّ وثاق الحبل الذي يُقيِّد يدَيه، لكن لم تُجْدِ محاولته نفعًا. شعر باليأس. لم يكُن أنطونيو يهاب الموت؛ ولكنه وعد توماس بيريز أنه سيحمي أُسرته إذا وقع له أي مكروه.

لقد أخفق.

وعَبْر قضبان النافذة سمع صوتًا مدوِّيًا أعلى، كصوت هزيم الرعد فوق الرأس. وحتى في خِضَمِّ مِحنته، أدرك أنطونيو أن الأصوات القادمة من الجبل كانت تقترب أكثر فأكثر. لم يكُن أمامه مُتَّسع من الوقت آنذاك.

تحدَّب كتِفا أنطونيو. وحتى هذا فشل في الوفاء به أيضًا.

بذل قصارى جهده لكي يُحذِّر البلدة من الخطر المُحدق، لكنهم لم يُنصتوا إليه. كانوا مُستقرين في بيوتهم الرائعة ومُنعَّمين في ملابسهم الجميلة، بالإضافة إلى الثروة التي جلبتها السفن التجارية معها إلى الميناء. لم يُصدِّقوا أن الجبل الأسود سينقلب عليهم بعد كل هذه السنين الآمنة التي عاشوها في كنفه.

فجأةً، سمع صوتًا آتيًا من ورائه. ضجيج مكتوم. وعلى الرغم من أن عينَيه كانتا مَعصوبتَين وكانت الأجواء مُظلمة بحق، شعر أن شخصًا — أو شيئًا — موجودًا معه في تلك اللحظة بالزنزانة. أكان هذا جرذ؟ كانت الزنزانة تعجُّ بالجرذان كما هي الحال في الميناء ذاته.

غضَّ صوته قائلًا: «مَن هناك؟» ثم تساءل في نفسه ما إذا كان هذا هو المُخطط منذ البداية. ربما تركوه وحده في الزنزانة حتى يتمكَّن أحدُهم من الدخول عليه واغتياله.

تأهَّب أنطونيو، وقد توقَّع بشكلٍ أو آخَر أن يشعر بسكين تُستل وتخترق رقبته. وبدلًا من ذلك، شعر أن وثاقه يُحَلُّ والعصابة تُنزع من على عينَيه.

ومع ذلك، لم يختلف الأمر؛ إذ هبَّ أنطونيو واقفًا من على الكرسي، متأهبًا للدفاع عن نفسه.

صرخ رودي: «لا تؤذِني!»

حدَّق فيه أنطونيو بدهشة. قال: «باسم الرب، كيف دخلت هنا؟»

أشار رودي إلى النافذة العالية. قال: «حمَلَني بابلو وانزلقتُ عَبْر القضبان.»

عقدتِ الدهشة لسان أنطونيو. كان رودي ضئيل البنية شديد النحافة، وحتى مع ذلك كان من المُدهش أن يتسلَّل الصبي عبر القضبان بسهولة.

قال: «رودي، لا يمكنك البقاء. سيُعاقبونك إذا وجدوك هنا. لا أريد أن يُؤنِّبَني ضميري على هذا.» ثم رفع ناظرَيه مرة أخرى إلى النافذة. وأردف: «ما من سبيل يُمكنني من الخروج بهذه الطريقة.»

لم يُلقِ رودي لقوله بالًا. وأردف: «هناك حارسان فقط بالخارج. علينا أن نجعلهما يفتحان الباب. سيُشتِّت بابلو انتباههما.

نظر أنطونيو إلى الصبي ذي الأسمال البالية. كان رودي وحيدًا دائمًا، يتحاشاه الصبية الآخرون دومًا في ألعابهم. ولكنه بدا الليلة أكثر جرأة وإقدامًا. لم يرَ أنطونيو أن ثمة أملًا في نجاح الخطة، إلا أنه تأثر بجهود الصبي الرامية لمساعدته.

قال: «حسنًا.»

نظر أنطونيو حوله في الزنزانة. كان الشيء الوحيد الذي بمقدوره استخدامه كسلاح هو الكرسي نفسه. قال: «قف خلف الباب.»

بمجرد أن اتخذ رودي موقعه، بدأ أنطونيو يخبط الكرسي على الأرض، محاولًا نزع الأرجل. وبدأ يصرخ.

صرخ قائلًا: «مرحبًا! أيها الحراس!»

على الجانب الآخَر للباب، سمع صوت الجنود. صفع أحدهم الباب بطرف بندقيته. «الزم الهدوء بالداخل.»

لم يكترث أنطونيو؛ وإنما واصل الصراخ وخبط الكرسي بالحائط والأرضية. انخلعت رجل أخرى من الكرسي، مرَّرَه إلى رودي ليستعمِله كسلاح.

قال أنطونيو: «هاجِمه من عند ركبتَيه.»

أومأ رودي برأسه.

صاح أنطونيو مرةً أخرى: «أيها الغبي! يا أحمق! تقف عندك طوال الليل، بينما ينام العمدة قرير العين في فراشه. لن يأتي حتى الصباح، بينما ما زلتَ أنت تقف هنا.»

«قلت لك الزم الهدوء!»

واصل أنطونيو إحداث الضجيج حتى سمع أخيرًا صوت المفتاح يدور في القفل. أومأ إلى رودي، الذي وقف متأهبًا ممسكًا بالرجل الخشبية المكسورة في يده السليمة.

وفي اللحظة التي بدأ فيها الباب ينفتح، سمعا أحد الجنود يصيح.

«مَن يلقي بهذه الأشياء؟»

ثم سمعا صوت بابلو بالخارج. كان يقول: «لا يمكنكم القبض عليَّ!»

صاح أحد الجنود غاضبًا: «تعالَ هنا!»

سمع أنطونيو وَقْع خطوات راكضة لحذاء بيادة ودعا أن يكون بابلو أسرع من الجندي. فجأةً فتح أنطونيو الباب على مصراعَيه على أمل أن يُباغت الجندي الثاني. اختل توازُن الجندي داخل الزنزانة. استهدفه رودي وهوى بالخشبة على ركبته.

صرخ الجندي عندما هوى أنطونيو بالكرسي على رأسه، ليُفقده الوعي. أمسكه من أسفل كتِفَيه وجرَّه إلى داخل الزنزانة، ثم تسلَّل الرجل والصبي وأغلقا الباب خلفهما. وضع أنطونيو المفتاح في جيبه وربَّت على ظهر رودي.

«أحسنت صنعًا.»

ومن الخارج، سمِعا صوت طلقة نارية. تجهَّم أنطونيو.

صاح رودي قائلًا: «بابلو!» وبدأ يركض بأسرع ما تسمح به ساقه المعاقة.

الفصل السابع عشر

استغرقت الأرملة سيلفا وقتًا طويلًا حتى تجد شخصًا يساعدها في إنزال جثة السيدة بيريز من فوق العارضة الخشبية. دفعت للرجال مقابلًا ماديًّا يفوق قُدرتها على التحمُّل. ثم، مدَّدَت جسد والدة آنا على الطاولة بمفردها. وأضاءت الشموع عند رأسها وقدمَيها. ضمَّت ذراعَي السيدة بيريز على صدرِها ووضعت المسبحة في يدَيها. وأخيرًا، غطَّت وجه السيدة بيريز الشاحب بوشاحها الأسود ووضعت الكتاب المُقدس بجانبها.

شعرت الأرملة سيلفا بالتوتر عندما تركت السيدة بيريز وحدَها — كان العرف السائد أنه ينبغي على نساء البلدة أن يجلسنَ لحراسة الجثة — ولكن لم تكُن هذه أوقاتًا عادية. كان يتعيَّن عليها التفكير في الأحياء. ازداد الصوت المدوِّي الصادر عن الجبل الأسود لساعات.

وعندما أنجزت مُهمتها، غادرت الأرملة سيلفا منزل آل بيريز وهي تخشى أن تكون المرة الأخيرة على الإطلاق. ثم اتجهت إلى المجلس البلدي وهي تتوارى عن أنظار الجنود القليلين الذين ما يزالون يجوبون الساحة في دورية الحراسة.

تسلَّلَت آنا وكارلوس من الباب الخشبي الصغير المؤدي إلى المُصلَّى الجانبي.

لم يكُن هناك أحد في المكان.

قالت آنا: «لا تقلق، إننا بمأمن»، ثم أضافت في سِرها: «حتى الآن.» كان كارلوس بطبيعته شجاعًا جدًّا، إلا أنه كان بمقدورها أن تستشعِر مدى خوفه.

ركضا عَبْر صحن الكنيسة وخرجا إلى الزقاق مُتشابكَي اليدَين. أطلَّت آنا من عند الناصية، لترى ما يحدث، بينما ظهرت الأرملة سيلفا عند الناصية البعيدة من ساحة البلدة. لوَّحَت آنا لها لتجذب انتباهها. وحين بدا أنها لا تراهما، نادت آنا عليها باسمها.

«نحن هنا!»

راقبت — هي وكارلوس — الأرملة سيلفا وهي تبحث عنهما في أجواءٍ شِبه مُظلِمة — إذ غُطي الجزء الأكبر من القمر بسحابة من الرماد — ثم رفعت ذراعها ردًّا عليها. أشارت آنا إلى ناصية الشارع المؤدي إلى الميناء.

وبعد لحظات قليلة، الْتَقوا معًا.

قالت الأرملة سيلفا وهي تضع يدَها الهرمة على ذراع آنا: «الحمد لله، أنتما بمأمن.»

أجابتها: «أنا بخير بفضل كارلوس.»

شعرت أن وجه أخيها تخضَّب خجلًا. وأردف: «لم أفعل الكثير ...»

«لقد أظهرت شجاعةً كبيرة. كان من شأن والدك أن يكون فخورًا بك.»

تطلَّعَت آنا إلى الساحة الفارغة. كانت تظنُّ بطريقةٍ ما أو بأخرى أن البلدة ستزدحِم بالأشخاص الذين يستعدون للرحيل.

«أين ذهب الجميع؟»

راقبت آنا الأرملة سيلفا وهي تضع إصبعها على شفتَيها وتُشير. تابعت آنا نظرتها ثم رأت جنديَّين يتحركان في الظلام بالقرب من المجلس البلدي.

أوضحت الأرملة سيلفا قائلة: «لقد فرض العمدة حظر التجوال بحلول الغسق. الناس يهابون جدًّا الخروج من منازلهم.»

استشاطت آنا غضبًا. «يا للخبث! وأي شخصٍ يمكث هنا يُعرِّض حياته للخطر.»

«أجل. لكن، للأسف، لم يقنع أنطونيو الكثيرين بأن الخطر كان حقيقيًّا. اتخذ رجل أو رجلان إجراءاتٍ وقائية لحماية قواربهما، وجمع البعض الآخَر الماء من المضخة لاستعماله في حالة الطوارئ، ولكن بالنسبة للأغلبية ...»

هزَّت آنا رأسها. «ألا يرَون أن الوضع مختلف؟ أليس لديهم عيون يبصرون بها؟ أو آذان يسمعون بها؟»

تنهَّدَت العجوز. وأردفت: «كان هناك عدة إنذارات كاذبة.»

«حتى وإن كان الأمر كذلك ...»

شعرت آنا بكارلوس بجانبها يجذب كمَّها. «هل تعتقدين أن بابلو ورودي بخير؟»

ضغطت آنا على يده. وقالت بثقة أكبر مما كانت تشعر به فعليًّا: «أنا واثقة من أنهما بخير.» ثم الْتَفتت إلى الأرملة سيلفا وسألتها: «هل رأيتِهما؟»

أجابتها الأرملة: «لم أرَهما منذ بضع ساعات.»

قال كارلوس: «اتفقنا أن نلتقي عند الشاطئ بجانب طاولات صيد الأسماك، هل يُمكننا الذهاب هناك؟»

أومأت آنا برأسها. وقالت: «هذه فكرة سديدة. اذهب إلى الميناء. ونحن سنعود إلى المنزل لنُحضر ...»

صاحت الأرملة سيلفا مقاطعة إياها: «كلَّا!» ثم وضعت يدَها على فمها.

نظرت آنا إليها في دهشة. الآن تذكرت أن كارلوس قد أخبرها بأن الأرملة سيلفا كانت تُرافق والدتها. فلماذا إذَن لم تكُن ترافقها حتى الآن؟

قالت آنا: «سيدة سيلفا؟» استشفَّت آنا من نظرةٍ واحدة إلى وجه العجوز أن ثمة خطبًا جللًا. تساءلت آنا: «ما الخطب؟ أرجوكِ أخبريني.»

أجابتها الأرملة: «آنا، أنا ...»

نظرت آنا إليها. وقالت: «علينا أن نذهب لإحضار والدتي، لماذا لا تريدين أن أذهب ...؟»

لكن قبل أن تُعطيها الأرملة سيلفا جوابًا، شعرت آنا بكارلوس يتقافز.

قال بصوت هامس عالٍ: «انظرا! ها هم أولاء! هناك.»

تابعت آنا نظراته ورأت أنطونيو وبابلو ورودي يقطعون الشارع الضيِّق المؤدي إلى الميناء. استطاعت أن تجذب ذراع كارلوس بشدة قبل أن يبرُز من مكان مخبئهم.

قالت آنا: «الجنود سيرونك.»

عندما اقتربت الجماعة الصغيرة، رأت آنا وجه أنطونيو مخضبًا بالدماء والكدمات. وكان بابلو يعرج. أما رودي، بخطواته البطيئة والمتأنية، فكان الوحيد الذي لم يمسَسْه سوء.

سأل كارلوس أخاه التوءم عندما وصلوا إلى مكانه: «ما الذي حدث؟»

ابتسم بابلو ابتسامة واسعة. وقال: «لقد الْتَوى كاحلي عندما قفزت فوق السور هربًا من الجندي. لكنني كنت أسرع منه.»

ابتسم أنطونيو ابتسامة صفراء. وقال: «يجب أن تكوني فخورة جدًّا بهؤلاء الشباب.» ثم نظر إلى رودي وقال: «ثلاثتهم.»

قالت آنا: «أنا فخورة فعلًا بهم.»

لاحظت آنا كيف أن إحدى عينَيه مغمضة ومتورِّمة وشَعره متكتل بالدماء. قالت بصوتٍ خفيض: «لقد فهمت ما حدث لوالدي، والسبب وراء ذلك.»

قال أنطونيو: «سنتحدَّث عن ذلك لاحقًا، بمجرد أن نصل إلى مكان آمن. القارب جاهز للإبحار.»

قالت آنا: «القارب؟»

أوضح بابلو قائلًا: «لدَيه مركب شراعي صغير. مزود بزوج من المجاديف.»

أضاف كارلوس: «ومزود أيضًا بسارية وشراع.»

رفعت آنا حاجبيها.

فقال أنطونيو: «كنت أمتلكه منذ فترة. هو راسٍ على الرصيف الأول بعد صاجات الشواء والتدخين.»

قالت آنا: «فهمت.» ثم نظرت إلى شقيقَيها، وابتسمت. ثم أردفت: «يبدو أن الوقت الذي قضيتموه في الميناء لم يذهب سُدًى على أية حال.»

ابتسم بابلو ابتسامة واسعة. وقال: «علَّمَنا أنطونيو كيف نُبقي المجاديف مستوية في الماء.»

قالت آنا: «في هذه الحالة، اذهبا الآن مع أنطونيو — وأنت أيضًا، يا رودي اذهب معهم.» ثم الْتَفتَتْ إلى الأرملة سيلفا. وقالت: «ونحن سنذهب لإحضار أُمي، وأكبر كمية ممكنة من الطعام، ثم نلتقيكم على رصيف الميناء.»

الفصل الثامن عشر

بدون سابق إنذار، بدأت الأرض تهتز بعنف. ثم ظهر صَدْع في منتصف الشارع الضيِّق، أشبَه بالعلامة المُميزة للبرق.

قال كارلوس منتحبًا وهو يمسك بيد آنا: «ما الذي يحدث؟»

سمعت آنا صرخة. ثم الْتَفتَت عند منعطف الطريق ورأت الناس يفتحون أبوابهم ويخرجون إلى الساحة.

تطلَّعَت إلى الجبل الأسود الذي لاح في أفق البلدة. ارتفع صوت دَوِيٍّ آخَر، كما لو أن الأرض تتأوَّه وتئنُّ، ثم بدا الأمر وكأنه انفجار وقع تحت الأرض. كان الصوت مُدويًا مثل المدافع التي تُطلَق في الميناء لإعلان خروج سفينة مهمة للإبحار.

قال أنطونيو: «يجب علينا أن نسرع.»

تساءلت الأرملة سيلفا: «هل يجب أن نبحث عن مأوًى؟»

«كلَّا. علينا أن ننتظر ونرى في أي اتجاه ستتدفق الحمم البركانية، قد تتدفق جنوبًا — لا بل شمالًا نحو البلدة — إلا أن الرماد سيظل مُميتًا. أعتقد أننا سنكون أكثر أمانًا في عرض البحر.»

قالت آنا: «والدي كان يقول إن منسوب البحر يرتفع أحيانًا ويغرق اليابسة. هل يمكن أن يحدث ذلك؟»

أجابها أنطونيو: «قد يحدث هذا؛ ولكن أظن أنه سيكون أخف الضررَين.»

توقفت آنا لبرهة، ثم أومأت برأسها. كان يتعيَّن عليهم أن يثقوا به. وأردفت: «حسنًا. سنلتقيك على متن القارب بأسرع ما يمكن.»

قال رودي: «يجب أن نقرع جرس الإنذار. لنُنذِر الجميع بأن الجبل البركاني يثور.»

قال بابلو سأذهب معك. أريد أن أساعدك في قرع الجرس.»

رأت آنا الصبيَّين، العدوَّين اللدودَين، يَصِلان إلى نقطة تفاهُم.

وضع أنطونيو يدَه على كتف كارلوس. وأردف قائلًا: «كارلوس، تعالَ معي وساعدني في تحميل السفينة.»

افترقت بهم الطرق؛ إذ توجَّه رودي وبابلو إلى الكنيسة، واتجه أنطونيو وكارلوس إلى الميناء، تاركين آنا والأرملة سيلفا وراءهم.

قالت آنا: «لا أحد غيرنا هنا. أخبِرني ما الذي حدث.»

ومن ورائهما، ارتفع صوت الدوي الآتي من تحت الأرض أكثر فأكثر.

«آنا، تُوفيت والدتك.»

شعرت آنا أنها تجمَّدت في مكانها للحظة. بدا كل شيءٍ وكأنه يحدث بالتصوير البطيء، كما لو أنها تغرق تحت الماء. احتبست أنفاسها.

قالت الأرملة سيلفا: «لم أرغب أن أُخبرك أمام الصبيَّين. أنا آسفة جدًّا.»

غير أن آنا لم تنبس ببنت شفة. عجزت عن تصديق ما سمعته. وفي الوقت نفسه، شعرت في قرارة نفسها أنها حقيقة.

وفي الكنيسة، دق الجرس ليقرع ناقوس الخطر. قالت آنا بصوتٍ بدا أنه غريب عليها: «ينبغي أن أذهب إليها.»

قالت الأرملة سيلفا: «لا يُوجَد شيء يمكنك فعله من أجلها في الوقت الراهن.»

نظرت آنا إليها دون أن تتبيَّن أي شيء. فسألتها: «ماذا حدث، هل تعرفين؟ هل كنتِ معها؟»

هزَّت الأرملة سيلفا رأسها نافية. وقالت: «وجدتها. وكفَّنتُها على الوجه الذي كانت تتمناه.»

استفاقت آنا من غشيتها. وتابعت: «يجب أن أذهب إليها.»

أمسكت الأرملة سيلفا بذراعها. وقالت: «يجب أن تُفكِّري في أخوَيكِ، يجب أن تفكِّري في نفسك.»

هزَّت آنا رأسها. وقالت: «لا أستطيع أن أتركها وحسب! هذا غير لائق! أتظنين أنني سأتركها ...»

قالت الأرملة سيلفا: «أنصِتي إليَّ. لقد قتلوها يا آنا. رأيتها بأم عيني. ووضعت مسبحتها في يدها وكتابها المقدس عند رأسها. لا شيء يمكن أن يؤذِيَها. لنُصلِّ لها أن تكون مع والدك الآن. ولكن يجب أن نذهب. ألا تُدرِكين أنهم سيقتلونك إذا عثروا عليكِ؟ وكذلك بابلو وكارلوس أيضًا.» تطلَّعَت الأرملة سيلفا إلى أعلى. وأضافت: «إذا لم يَقتلنا الجبل أولًا.»

تسمَّرَت آنا في مكانها، لا تدري ماذا تفعل. كان هناك صوت هدير مدوٍّ أخير، كما لو أن العالم بأكمله ينهار. ثم، دوَّى صوت لم تسمعه من قبل؛ صوت انفجار من داخل الجبل. وبعد لحظات، انطلق من الفوهة أنبوب صخور مشتعلة ونيران، محولًا سماء الليل إلى الألوان الأحمر والبرتقالي والذهبي.

وفجأةً، امتلأت ساحة البلدة بالناس عن آخِرها. رأت آنا الجنود يُسقطون أسلحتهم ويفرُّون. ركع البعض على رُكَبهم وصلَّوا، بينما أوصد البعض الآخَر أبوابهم بصناديق خشبية، كما لو كان بمقدورهم حقًّا إيقاف جريان نهر النيران.

صرخت الأرملة سيلفا: «آنا، يجب أن نذهب!»

ومن كل حدَب وصوب، أخذ الناس يصرخون وينتحبون حولهما. تدفَّقَت النيران السائلة في كل اتجاه، مثلما ينطلق الشرر من مطرقة الحداد. تناثرت قطع كبيرة من الصخر الأسود في الهواء وتساقطت على المُنحدرات بالأسفل.

ثم وقَعَ انفجار آخَر. وبدأ نهر من الحِمم المشتعلة يتدفَّق نحو البلدة. طَفَت سحابة من الرماد الساخن فوق البلدة. لم يعُد لون الرماد رماديًّا، بل صار أسود.

قالت آنا وهي تتذكَّر تحذير والدها: «الثلج الأسود.»

صار الحزن كالغصَّة في حلقها. وأدركت آنا أنها لن تغفر لنفسها أبدًا ترك والدتها دون أن تدفنها. أدركت أنها ستُطاردها طَوال عمرها فكرة أن والدتها ماتت خائفة ووحيدة، وسقطت ضحية لرجال قُساة. كانت تعلم أن الأرملة سيلفا كانت مُحقة. كان عليهم أن يُغادروا الآن حتى تسنح لهم فرصة النجاة.

قالت الأرملة المُسِنَّة بلُطف: «آنا؟»

أقسمت آنا أنها، إذا نجوا — إذا نجا الجميع — فستُقدِّم قتلة والدها ووالدتها إلى العدالة. أومأت برأسها، قائلة: «فهمت. شكرًا لك.»

عندما تطايرت الدفعة الثالثة من الحِمَم المنصهرة والصخور في سماء الليل، اندفع بابلو خارجًا من الكنيسة مع رودي، الذي تبعه، بأسرع ما تسمح له ساقه العرجاء، ولحِقا بآنا والأرملة سيلفا.

قالت آنا، قبل أن يسألها بابلو عن أُمهم: «هيا. ستبقى أُمنا لتصلِّي من أجل البلدة. إنها تُريدني أن أصحبك أنت وكارلوس إلى مكانٍ آمن. إنها تؤمن بأن الرب سيُنقذها.»

بدا أن بابلو اقتنع بهذا. فعلى مدار حياتهم، كانت أُمهم تقضي معظم وقتها في الكنيسة أكثر من أي مكانٍ آخَر. كانت أقل تعاسة هناك.

حبست آنا دموعها. وشعرت بنظرات رودي مُثبَّتة عليها وأدركت أنه يعلم أنها لم تكُن تقول الحقيقة. شعرت بارتياح عندما لم يتفوَّه بكلمة.

صرخت: «أسرعوا. ليس أمامنا مُتَّسع من الوقت.»

الفصل التاسع عشر

تساءل العمدة: «ماذا تقصد؟»

نظر القس إلى الباب. «ما أقوله يا أخي، إنه ما من جند هنالك. لقد فرُّوا.»

وقف العمدة وأخوه في الغرفة الخاصة بالعمدة في المجلس البلدي.

«ينبغي أن نُغادر أيضًا. الخيول جاهزة.»

أخذ العمدة يملأ صندوقًا خشبيًّا بالكنوز المنهوبة من سفينة الكنز «لا بلانكا».

صاح القس بحدَّة مُتزايدة: «أخي! لا يُمكننا أن نحمل المزيد.»

نظر العمدة إليه. وقال: «ألا يتعيَّن عليك أن تكون في الكنيسة مع رعيتك؟ ألا يجب أن تُصلِّي ليُنقذنا الرب؟»

احمرَّت وجنتا القس. فأردف: «العربة تنتظر عند درج السلالم. لا يسعنا التأخير أكثر من ذلك. إذا رآنا الناس نُغادر ...»

قال العمدة بازدراء: «الناس لن ينقلبوا على الجنود.»

«قلت لك إن الجنود قد غادروا.»

اهتزَّت الغرفة وظهر شقٌّ على الجدار. ثم تساقط الجص من السقف.

قال القس: «أتوسَّل إليك يا أخي، اترك الباقي. لديك ما هو أكثر قيمة من ذلك.»

اختطف العمدة بضعة أشياء أخيرة من الخزانة الخشبية الطويلة. آلَمَه أن يترك خلفه سبائك الذهب والأقداح الفضية. دس حفنة من الياقوت وغيره من المجوهرات في جيوبه.

ثم صاح بأوامره: «هنا! تعالَ إلى هنا!»

وعندما لم يأتِ أحد، أشار إلى القس ليُمسك بطرف صندوق الحُلِيِّ وأمسك هو بالطرف الآخَر. تعثرا وهما يحملان الصندوق بينهما ليخرجا من الغرفة ويمرَّا عَبْر الأروقة الفارغة للمجلس البلدي.

تساءل العمدة: «أين ذهب الحراس؟»

رد القس: «هذا ما كنتُ أحاول أن أُخبرك به. لقد غادر الجميع.»

ظهرت بارقة غضب في عينَي العمدة. وصاح قائلًا: «سآمُر بشنقهم جزاءً لتركهم مواقعهم.»

خرج الرجلان — أحدهما مدثرًا بثوبه الكهنوتي الأسود، والآخَر مُرتديًا ملابسه الإسبانية الراقية — وتعثَّرَا على دَرَج سُلم المجلس البلدي. امتدَّت الساحة أسفل منهم كاشفة عن مشهدٍ يعجُّ بالفوضى. ركض الرجال والنساء من كل حدَب وصوب بينما تساقط الرماد الساخن على رءوسهم.

بدأ العمدة يختنق. فسحب منديلًا رقيقًا من الدانتيل من جيبه وغطَّى به فمه وأنفه. كانت عربة الخيول تنتظر عند سفح الدَّرَج. بدا الحصانان في حالة توتر، فركا بقدمَيهما الأرض المضطربة من أسفلهما.

قفز السائس وفتح باب العربة. صعد العمدة وأخوه ووضعا الصندوق عند أقدامهما. ثم صعد السائس إلى مقعده، وهوى بسوطه فانطلق الحصانان نحو الميناء.

أخرج العمدة رأسه من النافذة. وصاح قائلًا: «ليس هذا الطريق، يا أحمق! اسلك الطريق الساحلي.»

حاول القس أن يُعارضه؛ إلا أن العمدة لم يكُن ليسمع: «لكن أخي ...»

لف السائق بالعربة. امتثل لأوامر العمدة وتوجَّه نحو الطريق البحري القديم المُتجه شرقًا، دون أن يُلقي بالًا لأي شخصٍ في طريقه؛ سواء أكانوا نساءً أم أطفالًا أم رجالًا.

الفصل العشرون

عمَّت الميناء موجة من الهياج. لم تكُن آنا قد رأت شيئًا كهذا من قبلُ. بدا أن هناك مئات الأشخاص. اتجه بعضهم ناحية البحر. وأخذ البعض الآخَر يبني أماكن للاختباء تحت أرصفة الميناء أو قوارب الصيد، على أمل أن يَحميهم هذا من الرماد والحِمَم البركانية.

صاح بابلو: «من هذا الطريق.»

تبعت آنا أخاها. كانت تشعر بالخدَر. ماتت أُمها، ومات أبوها. ربما ما كان لينجو أحدٌ منهما هذه الليلة. تفرع نهر النيران أولًا إلى فرعَين، ثم إلى أربعة. الآن، بدا كأنه سبعة أشرطة ضخمة من الحِمَم البركانية تتدفَّق من الفوهة باتجاه البلدة. غطت سحابة الرماد الأسود القمر والسماء. بدا الأمر كما لو أنهم يواجهون نهاية العالم.

قالت الأرملة سيلفا، وهي تناول آنا سلة: «إليكِ هذا.»

وبداخل السلة، كان هناك سمك مشوي ملفوف بقماش، ورغيف خبز. وضعت آنا فاكهةً مجفَّفة في جيبها وقطعة من جبن الماعز استطاعت العثور عليها أثناء الركض نحو الميناء. لم تكُن كمية كبيرة. ولكن ما دام لديهم ماء صالح للشرب، فإنهم سيكونون بخير إذا استطاعوا الابتعاد عن الرماد. أدركت آنا أن كل شيءٍ سيكون مرهونًا باتجاه الرياح.

ركضوا عَبْر الرمال السوداء نحو رصيف الميناء. توقَّفَت آنا للتأكد من أن رودي والأرملة سيلفا يتبعانها.

وقف أنطونيو وكارلوس ينتظران عند القارب الشراعي الصغير. فوجئت آنا. كان أكبر مما كانت تتوقَّع. قارب تجديف طويل ذو قاعٍ مُنخفض مزوَّد بسارية واحدة وشراع. ربما كانت الشائعات حول كون أنطونيو نبيلًا إسبانيًّا صحيحة.

مدَّ أنطونيو يده وساعد الأرملة سيلفا في الصعود على اللوح الخشبي المتحرك. عانق كارلوس توءمه، ثم نظر حوله.

وتساءل: «أين أمي؟»

فتحت آنا فمها، إلا أن رودي بادر بالكلام. قائلًا: «إنها مع نساء شُجاعات أُخريات في الكنيسة. يصلِّين من أجل البلدة.»

بدا أن كارلوس سلَّم بهذا مثل بابلو. شعرت آنا بالامتنان تجاه رودي. لقد خمَّن رودي أن خطبًا ما وقع لوالدتهم.

همست له وهو يأخذ السلة من يد الأرملة سيلفا: «شكرًا.»

رد عليها هامسًا: «أنا آسف.»

شعرت آنا بعاطفة غامرة تجاه الصبي المنبوذ.

ثم اندفعت من الفوَّهة دفقة أخرى من النيران والصخور.

قال أنطونيو وهو يجذب اللوح الخشبي المتحرك: «أسرعوا، علينا أن نبتعِد عن الشاطئ قدْر الإمكان.»

نظرت آنا حولها في يأس. وتساءلت: «ولكن كيف يمكننا أن نبحر بالسفينة بدون طاقم؟»

ابتسم أنطونيو، ثم غمز بعينه المُتورمة. وقال: «حسنًا، لدينا طاقم.»

أدى بابلو التحية. وقال: «نعم، نعم، يا قبطان.»

أمره أنطونيو: «كارلوس، هل يمكنك الإبحار؟»

ركض كارلوس إلى مؤخرة القارب وفكَّ حبلَ الإرساء. ثم دفعا معًا القارب بعيدًا عن الرصيف بالمجاديف ثم قفزا إلى موقعيهما.

وقف أنطونيو عند ذراع الدفة لقيادة القارب. أمسك كلٌّ من بابلو وكارلوس بمجداف وبدآ في التجديف. وببطء، بدآ يبتعدان عن الرصيف. كان الميناء مليئًا بالقوارب الصغيرة التي كانت جميعها تحاول الوصول إلى مخرج الميناء، لكن أنطونيو تمكَّن من قيادتها عَبْر مخرج الميناء ومنه إلى البحر المفتوح.

صاح قائلًا: «ارفعا الشراع.»

أرخى بابلو وكارلوس مجاديفهما، ثم قفزا وجذبا الحبال لرفع الصاري إلى مكانه. راقبَتْهما آنا وهي يملؤها الفخر. لم يكُن لديها أدنى فكرة بأنهما بحَّاران ماهران لهذه الدرجة وتمنَّت لو أن والدها عرف ذلك. وبمجرد أن رُفع الصاري، أفلت بابلو حبال الصاري وانبسط الشراع الأبيض الوحيد المربع الشكل.

تساقطت شظايا الصخور من السماء، لتُمطر على البلدة وفوق البحر. بالفعل، استطاعت آنا أن ترى شراعهم الأبيض تلوَّث بالرماد الرمادي اللون. سقط حجر كبير، أكبر من الباقي، في المياه خلف القارب على مسافةٍ ليست ببعيدة. انتشرت رائحة كبريت في الأجواء، لتنبعث بذلك دفقة من البخار المالح يُصاحبه أزيز.

إلا أنهم انطلقوا مع هبوب الرياح وتوغَّلوا في إبحارهم وسط المياه المتلاطمة الأمواج. دعَت آنا أن تكون هذه المسافة بعيدة بما فيه الكفاية.

تساقطت كُتَل من الصخور السوداء المشتعلة — يبلغ حجمها حجم رأس إنسان — هادرة على سفح الجبل.

أما على الطريق الساحلي المُتجه شرقًا، فقد أوسع السائس الحصانَين ضربًا بالسوط ليُسرعا أكثر. فمن جهة، أحاطَهم جدار جبلي شاهق. ومن الجهة الأخرى، أحاطهم مُنحدر عميق نحو البحر. فجأةً، شد السائس اللجام ليُوقف الحصانين. رأى أمامه الطريق مُغلقًا جزئيًّا. لا بد أن هناك انهيارًا أرضيًّا.

ترجرجت العربة حتى توقفت.

أطل العمدة برأسه من النافذة.

صاح السائس: «سيدي، لا يُمكننا المرور من هنا! الأمر في منتهى الخطورة.»

أشاح العمدة بيده. وقال: «هراء. هناك مساحة كافية لمرور العربة.»

«عجلات العربة عريضة جدًّا.»

أخرج القس رأسه من النافذة الأخرى للعربة. وبدا عليه القلق.

«إنه مُحق. يجب أن نعود أدراجنا يا أخي.»

صرخ العمدة قائلًا: «هل جُننت؟ الحِمَم تنساب في اتجاه البلدة. كلَّا، هذه هي أفضل فرصة أمامنا. إذا استطعنا العبور إلى الجانب الآخَر من اللسان البحري، سنكون في مأمنٍ من الخطر.»

تراجع القس في مقعده.

صرخ العمدة في السائس قائلًا: «انزل. يمكنك أن تقود الحصانين عَبْر الطريق. الطريق خالٍ من العوائق على الجانب الآخَر من الصخور.»

شرع السائس يقول: «سيدي، مع كامل الاحترام ...»

سحب العمدة خنجرًا من حزامه. وقال: «افعل ما أمرتُك به. إلا إذا كنت تريدني أن أتخذ القرار بدلًا منك.»

قفز السائس من مقعده نظرًا لأنه لم يعُد أمامه أي خيار. وربط اللجام فوق رأسَي الحصانين وحاول أن يقودهما عَبْر المنحدر الصخري. تمايلت العربة، ثم تأرجحت. بدأت العجلات تدور. لاحظ السائس كيف اتسعت عيون الخيل عن آخِرها من الخوف، لكنه تحدَّث إليهما بصوتٍ مُنخفض وأطاعا أمره. بسط معطف الفروسية الفضفاض فوق رأسيهما لحمايتهما من الرماد المتساقط.

تقدَّمَت العربة بحذَر وتُؤَدة خطوة تلوَ الأخرى. كانوا على وشك الاجتياز عندما نظر السائس إلى أعلى ورأى صخرة سوداء ضخمة تتهاوى من السماء نحوهم. صرخ، ورفع ذراعَه. ارتفع الحصانان على أرجلهما الخلفية، وتراقصت حوافرهما في الهواء الخانق. أصاب أحد الحوافر صدغ السائس فسقط على الأرض مذهولًا.

ارتفع كِلا الحصانَين مرة أخرى في الهواء بعدما أفزعتهما الضوضاء والصخور المُتساقطة. حاولا التحرُّر من القائم الخشبي الذي يربطهما بالعربة. وفي غمرة شعورهما بالرعب الجامح، انزلقت حوافر الحصان الأول في الرماد، وسقط عند الحافة. عجز عن الحفاظ على موطئ قدم على الحجارة والصخور، فانزلق لأسفل على حافة الجرف، ليسحب معه الحصان الآخَر والعربة.

كان هناك توقُّف غريب لبرهة، تبعه صمتٌ شِبه كامل. بعد ذلك، جلس السائس، مذهولًا. أدرك على الفور كم حالفه الحظ السعيد.

من على متن مؤخرة القارب، نظرت آنا عَبْر المياه إلى البلدة.

كان العالم يحترق. مُحِيَت ملامح كل شيء عرفته آنا. اشتعل سفح الجبل بالكامل. واستمرت تدفُّقات النيران المنصهرة تندفع من الفوهة.

ابتلعت آنا ريقها بصعوبة. المنحدرات التي كانوا يلعبون عليها في صغرهم، منزلهم الأبيض الصغير المُطل على بساتين الكروم، والعنزة التي أنقذتها من كوخ أنطونيو، وقعت جميعها مباشرة في مرمى أحد أشرطة النيران السبعة. غُطِّيت مراعيهم الخضراء بالحمم. وتحوَّلت الأرض إلى اللون الأسود وظل الرماد يتساقط. لتختنق السماء والقمر والناس والدواب.

أبقت آنا عينَيها مثبَّتَتين على الجبل الأسود وتساءلت ما إذا كان سينجو أي شيء. هذا إن نجوا هم أنفسهم.

كانت كلمات والدها يتردَّد صداها في رأسها — العذارى السبع في السماء، مثل الجزر السبع على الأرض. في تلك الليلة في شهر يناير، قبل خمسة أشهر، قال لها إن الحظ كان حليفهم.

قالت آنا وهي تقاوم دموعها: «أما الآن، فماذا ستقول يا أبي؟»

السبت، ١٥ مايو ١٧٠٦

بعد مرور ١٠ أيام

الفصل الحادي والعشرون

أبحروا بعيدًا بالقارب الشراعي الخاص بأنطونيو في الساعات الأولى من فجر الأربعاء ٥ مايو؛ أي اليوم الذي بدأ فيه ثوران البركان. انطلق أنطونيو — مُتخذًا بابلو وكارلوس طاقمًا له وبمساعدةٍ من جانب رودي وآنا — في اتجاه الشمال الشرقي مسايرًا الرياح التجارية وأبحر بهم حول اللسان البحري بحثًا عن مأوًى آمِن.

ووصلوا إلى الشاطئ في اليوم التالي، وبعد أن استغرقوا بضع ساعاتٍ للتسلق إلى أعلى الساحل، وجدوا كوخًا مهجورًا خاصًّا بأحد الرعاة يقع إلى غرب الجبل الأسود. لقد انسابت الحِمَم البركانية نحو الشمال والشرق، لتترك اليابسة الواقعة غربًا بلا مساس تقريبًا. كانت السماء مُعتمة. لا ليل ولا نهار. إلا أنهم ما زالوا على قيد الحياة، وفي مأمنٍ من الخطر.

ومن بعيد، استطاعوا أن يرَوا النار لا تزال تنبعث من قلب البركان. استطاعوا أن يسمعوا صوت انشقاق الأرض. إلا أن الحمم البركانية لم تصل إلى مكانٍ قريب منهم وإنما ذرَّت الريح الرماد الأسود الخانق في الاتجاه المعاكس. كان هناك ماءٌ عذب. بدا الكوخ المهجور مكانًا جيدًا بالقدر الكافي مثل أي مكان آخَر لاتخاذه مأوًى وانتظار ما سيحدث.

أخذوا ينتظرون لمدة ١٠ أيام.

وفي فجر يوم السبت، ١٥ مايو، خطت آنا خارج الكوخ المتواضع الذي اتخذوه بيتًا لهم. لقد استيقظ أنطونيو مبكرًا وخرج، أما الأرملة سيلفا فكانت لا تزال نائمة. شعرت آنا، على الفور، أن ثمة شيئًا مختلفًا. أخذت نفَسًا عميقًا، ثم أدركت هذا الشيء. في صبيحة يوم السبت هذا، كانت السماء زرقاء. والهواء كان نقيًّا. كانت الشمس مُشرِقة. استطاعت أن ترى ما هو أمامها على بُعد أميال وأميال.

لقد خمد الجبل البركاني الأسود.

حدَّقَت آنا بكل بساطة في المكان من حولها لمدة دقيقة. لم ترَ أبدًا شيئًا بهذا الجمال من قبلُ. كادت ألا تصدق عينَيها. ثم غمرها شعور بالبهجة والارتياح ونادت من فوق كتفها دون أن تلتفت.

«استيقظوا! بابلو، كارلوس، رودي — استيقظوا!»

ومن داخل الكوخ، رفع الصبية الثلاثة النائمون رءوسهم من على حشية القش المفروشة على الأرض، وهم يطرفون بأعينهم استقبالًا لليوم الجديد. تحركت الأرملة سيلفا، التي غفَت على كرسي ذي مسندَين بجوار المدفأة الفارغة، من مهجعها. وقفت متصلِّبة في مكانها ثم خرجت أيضًا.

تساءلت: «ماذا هنالك؟ هل ثمة خطب ما؟»

ردَّت آنا: «أظن أن الخطر قد زال. زال الخطر.»

ثم انحشرت الكلمات في حلقها عندما أدركت ما قصدته. استندت على يد الأرملة سيلفا لتتمالك نفسها من السقوط. لقد أخبرها أنطونيو أن البراكين أحيانًا تثور لسنوات. لقد ظنَّت أنهم ربما لن يتمكنوا أبدًا من العودة إلى الديار. لقد مرَّت ١٠ أيام فقط. وفي النهاية، حالفهم الحظ على أية حال. كما قد وعدها والدها تمامًا.

قالت في نفسها مرة أخرى: «زال الخطر.»

في تلك اللحظة، خرج بابلو وكارلوس مُسرعَين من الكوخ، يتبعهما رودي.

قالت آنا وهي تلوح بذراعَيها في رحابة لتستوعب المشهد. لقد عاشوا، لأكثر من أسبوع، في حالة من الشك والترقُّب والخوف. أما، الآن، ثمة عالم جديد تحت أقدامهم.

وقفت المجموعة الصغيرة في صمتٍ لبرهة. كان هناك الكثير من الأشياء التي يمكن أن تُقال، لكن الألسنة عجزت عن التعبير عنه. كانت آنا بحاجة لتستكشف أكثر وترى بنفسها.

«هلا تسلَّقنا لنصل إلى اللسان البحري ونرى ما إذا كان بمقدورنا العثور على أنطونيو؟»

اتَّقدَت عيون الصبية بالحماس.

قالت الأرملة سيلفا: «سأمكث هنا وأشعل النار.» رأت آنا الدموع في عينيها.

انطلقوا.

استطاعت آنا أن ترى الجزيرة وقد بدا عليها الاختلاف. حلَّت صخرة سوداء مُتعرِّجة محل ما كانت حقول خضراء يانعة ذات يوم. وحلَّت أعمدة من الحمم البركانية والكثبان

السوداء محل ما كانت أشجارًا سامقة ذات يوم. وفي كل مكان رأت أشجار دم الأخوَين لا تزال أو أيكة أشجار الأرز في مكانها.

وبينما كانوا يتسلقون لأعلى، بدأت آنا ترى أجزاءً من الأرض بقيت سليمة أيضًا. لقد انقسمت تدفقات الحمم البركانية، لتحفر طريقًا مباشرًا نحو الشمال من الجبل إلى البحر. لقد غطى الرماد الأسود الأرض الواقعة شرقًا. ومع ذلك، نجا عدد قليل من كرمات العنب المزروعة في قطع الأراضي الواقعة على الجبل ناحيتهم.

صاح كارلوس وهو يشير أمامه: «ها هو أنطونيو.»

رأت آنا أنطونيو واقفًا على حافة الجبل. لا بد أنه استيقظ في وقتٍ مبكر أكثر منها وذهب ليرى ما إذا كان هناك أي شيء يمكن إنقاذه. بدأت آنا تتمنَّى أن يكون هنا شيء يمكن إنقاذه.

ابتسم عندما رآها هي والصِّبيان يصعدون إليه.

قال كارلوس وهو ينظر إلى أخيه التوءم: «اختفى كل شيء. الميناء، وجميع السفن، اختفى كل شيء.»

وقفوا معًا يتطلعون لأسفل إلى ما كان قبل ذلك أهم ميناء في جزيرة تينيريفي. انجرفت الحواجز البحرية بعيدًا وظهرت العديد من جُزر الحِمَم السوداء الصغيرة في الخليج. دُفنت أغلب أجزاء البلدة تحت نهر النيران والرماد. الْتَقطت آنا أنفاسها، وهي تتخيَّل الخوف واليأس اللذَين شعر بهما مَن تخلفوا عن الفرار.

قال أنطونيو: «ليس تمامًا. انظروا مرة أخرى.»

في أماكن متفرقة، تلألأت بضعة أبنية بيضاء اللون في البلدة. كانت مُحترقة وبعضها كان أشبَه بالأنقاض؛ إلا أنها لا تزال شامخة. لم ينجرف منزل ناظر الميناء. استطاعت آنا أن تُميز بعض قوارب الصيد المقلوبة على الشاطئ.

قال رودي: «أظن أنني أستطيع أن أرى برج الكنيسة.»

قال بابلو: «وأنا أستطيع أن أرى سطح المجلس البلدي.»

تطلَّع كارلوس إلى أخته. وسألها: «هل هذا يعني أنه يُمكننا العودة إلى المنزل والعثور على أمي؟»

شعرت آنا أن أنطونيو ينظر إليها. فأخبرته بكلِّ شيء. كيف اكتشف والدها أن العمدة نفسه قد خطط لإغراق سفينة «لا بلانكا». وأخبرته بأنها تعتقد أن رجال العمدة سرقوا الكنز، أثناء تظاهُرهم بأنهم بعثة إنقاذ. وأغرقوا السفينة من خلال إبادة كل من كانوا على متنها، ولقد رأى أبوها كل هذا من المنطقة الجرداء الخالية من الأشجار على سفح الجبل.

كما أخبرت آنا أنطونيو أنها تظن أن والدتها قد أخبرت القس بما رآه زوجها عندما ذهبت للاعتراف في الكنيسة. ولقد أخبر القس، بدوره، أخاه العمدة. وهكذا، كُتبت شهادة وفاة السيدة بيريز أيضًا.

كانت آنا قد عزمت على إخبار الصَّبِيَّين بوفاة والدتهما عندما يحين الوقت المناسب. هذا بمجرد أن تتأكد من أن خطر البركان قد زال. جاء هذا في وقتٍ أقرب مما توقعَت؛ إلا أن آنا كانت تعلم أنه لم يكن لديها خيار آخر.

قالت وهي تُربِّت على العشب بجوارها: «تعاليا، اجلس إلى جواري يا كارلوس. وأنت أيضًا، يا بابلو.»

تبادل التوءمان نظرةً متوترة. ذهب رودي ليقف مع أنطونيو.

بدأت آنا حديثها قائلة: «كان والدنا رجلًا شجاعًا. كان يدافع دومًا عمَّا يؤمن به. تمتع بالشجاعة ولهذا السبب ...» أخذت نفَسًا عميقًا. ثم تابعت: «ولهذا السبب قُتل.»

تساءل بابلو: «قُتل؟» أطرق كارلوس ببصره إلى الأرض.

انتظرت آنا، ولكن لم يطرح أيٌّ منهما المزيد من الأسئلة. تفهمت. رغِبا في الاستماع إليها؛ ولكنهما لم يستطيعا أيضًا تحمُّل ما هما بصدد الاستماع إليه. لا يزال التوءمان صغيرَين. ستُخبرهم بكل شيءٍ عندما يتقدَّمان في العمر. ولكن ليس حينذاك.

قالت بحذَر: «كما تعرفان، رأت والدتنا الحياة صعبة؛ إلا أنها كانت تتمتع أيضًا بقدْر كبير من الشجاعة. كانت تعرف الصواب. لقد ماتت وهي تدافع عن ذكرى زوجها. ماتت لتحمينا.»

بدأ كارلوس يبكي بجوارها في هدوء. أحاطته بذراعِها وأحسَّت ببابلو يستند على كتفها.

ومن مكانٍ بعيد، بالوادي، دق جرس الكنيسة في البلدة القديمة ليتردد صداه في أرجاء الأرض المتفحمة.

الأحد، ١٥ مايو ١٧٠٧

بعد مرور عام

الفصل الثاني والعشرون

مع تحوُّل صيف عام ١٧٠٦ إلى خريف، ثم تحول الخريف إلى شتاء، عادت باقي الأسر الأخرى من جديد.

أرادوا أن يُعيدوا بناء حيواتهم مرة أخرى مثلما فعلت آنا. أرادوا أن يُعيدوا بناء البلدة التي أحبُّوها. لم يكُن هناك ما يشير إلى أن هذه القرية الصغيرة القائمة على نشاط الصيد كانت فيما سبق ميناء تينيريفي الرئيسي. صارت مياه البحر ضحلة جدًّا وصار الإبحار فيه محفوفًا بالمخاطر بسبب صخور الحمم البركانية السوداء. كانت السفن لا تزال تأتي من إسبانيا، إلا أنها ترسو الآن في الميناء الصاخب على ساحل الجزيرة الشمالي الشرقي. وبمرور الوقت، صار الميناء الجديد عاصمة المدينة. ونسي الجميع قريتهم الصغيرة على الساحل الشمالي الغربي للجزيرة باستثناء أولئك الذين عاشوا هناك.

عندما برزت جرائم العمدة وأخيه إلى النور، قدم المجلس البلدي الجديد اعتذارًا إلى آنا وأسرتها. لقد اعترف السائس، الذي حاول أن يقود العمدة وأخاه إلى برِّ الأمان، بكل شيء. عُثر على عربة الخيول عند سفح الجرف ولا تزال جثتا الحصانَين متَّصِلتَين بالقوائم الخشبية للعربة. كانت جثتا العمدة والقس بداخلها. انفتح صندوق الكنز عن آخِره، ليتناثر الياقوت والأحجار الكريمة في كل مكان. أُنفق جزء منها على إعادة بناء المجلس البلدي.

وأعلن المجلس البلدي تقييد وفاة والد آنا ووالدتها كجريمة قتل. وعلى الرغم من أن جثمانيهما فُقدا أثناء انفجار البركان، كان شاهد القبر في فناء الكنيسة مكتوبًا عليه: «توماس بيريز وماريا بيريز، اللذان ماتا في خدمة البلدة التي أحباها.»

كانت آنا تزورهما مع أخويها كل أسبوع لوضع باقة الزهور على القبر.

وفي يوم الأحد الموافق الخامس عشر من مايو، أُقيم قُدَّاس كنسي تخليدًا لذكرى جميع مَن رحلوا. وتأنَّق الحضور بأفضل ما لديهم من ثيابٍ وقبعات.

مرَّ عام على اليوم الذي انتهى فيه انفجار البركان. لقد مات الكثيرون، إثر الاختناق بالرماد أو دُفنوا أحياءً في بيوتهم حين تدفَّقَت الحمم البركانية إلى سفح الجبل ودُفن جزء من البلدة تحتها.

أحنت آنا رأسها. وصلَّت من أجل والدها ووالدتها، ومن أجل جميع مَن فقدوا حياتهم قبل عام. جلس بجوارها على مقاعد الكنيسة أنطونيو والأرملة سيلفا وأخواها بابلو وكارلوس وصديقهما المقرب رودي.

صار رودي الآن في الخامسة عشرة من عمره. وبما أنه صار أطول قامةً، صار عموده الفقري أقل انحناءً. وصارت ذراعه المشوهة أقوى إثر بناء البيوت وحظائر الحيوانات، وإثر مساعدة الفلاحين في زراعة بساتين الكروم الجديدة وأشجار الفاكهة. ورغم أنه لن يكون بخفة ورشاقة بابلو أو كارلوس، فإنه كان شابًّا لطيفًا عريض المنكبَين.

رفعت آنا عينَيها إلى النوافذ الزجاجية الملونة الخاصة بالكنيسة وتركت أصوات الجوقة تغمرها. رفعت الموسيقى روحها المعنوية. وانعكست أشعة الشمس على هيئة أشكال لامعة من الضوء الملوَّن فوق المذبح. وقد عرض أعضاء المجلس على آنا قطعة أرض واقعة غرب البلدة كتعويضٍ عما فقده والدها. كانت تتملك تلك الأرض كامرأة مُستقلة ذات أهلية. وعندما انتهى القُداس، تعيَّن على آنا أن تذهب بنفسها إلى المجلس البلدي للتوقيع على المستندات المطلوبة.

لم يكُن لدى آنا عِلم بما ستفعله.

ثبَّتَت ناظرَيها على الرداء الأسود للقس الجديد، وهو شاب من جزر كناري الأخرى. كان شابًّا مُتحمسًا ولطيفًا رأت آنا أنه إضافة ممتازة لمجتمعهم المحلي الصغير.

قال القس: «باسم الآب والابن والروح القدس.» ورفع يده اليمنى في الهواء وأشار على نفسه بإشارة الصليب.

«آمين.»

أمَّن الجميع على دعائه، بعضهم بصوتٍ عالٍ، والبعض الآخَر أمَّن في سره بصوتٍ هامس مثل آنا.

«آمين.»

انتهى القدَّاس.

وقف القس عند الباب ليُحيي كل فردٍ من رعايا الكنيسة. ابتسم إلى آنا والصبِيَّين، وأومأ برأسه إلى الأرملة سيلفا وصافح أنطونيو.

وبالخارج في ساحة البلدة، كانت الشمس تشرق. وقفت آنا لدقيقة تتأمَّل المشهد. كان المجلس البلدي لا يزال قائمًا، رغم أن جدرانها تشقَّقَت. كانت تُوجَد سقالات خشبية في الحدائق الخاصة بحيث يمكن إصلاح الأضرار التي لحقت بالسقف. كُسِر درج السُّلَّم الذي وقف عليه أنطونيو عندما حاول أن يقنع أهل البلدة بالاستماع إليه. كانت تُوجَد تلال من الحِمم البركانية حيث شقت تدفقات الحمم البركانية طريقها إلى قلب البلدة. وجعلت السطح غير مستوٍ.

وبعيدًا عن الساحة، في المنطقة التي لم يلحَقْها الانفجار البركاني على الأغلب، بُنيت منازل جديدة. وافتتح التجار متاجر لبيع الملابس والكتب والأواني الفخارية، وأي شيءٍ قد يحتاج إليه الناس. لقد فقدت أغلب الأُسَر كل شيء؛ إلا أن بلدتهم البيضاء الصغيرة عادت مرةً أخرى إلى الحياة. لن تكون كما كانت أبدًا، ولكنها ستكون مكانًا جيدًا للعيش فيه على أية حال.

أدركت آنا أنها تنتمي إلى هذا المكان. ولكن هل كان هذا يَسري على أخوَيها أيضًا؟ لم تكُن متأكدة.

رفعت يدها لتحمي عينَيها من أشعة الشمس الساطعة حين جاء أنطونيو ليقف بجانبها.

سأل: «هل اتخذتِ قرارك؟»

«هذا متوقف على ما يقوله رودي.»

قال أنطونيو: «أنتِ تعرفين ما سيقوله. هل تريدين أن أذهب معكِ إلى المجلس البلدي؟»

هزت آنا رأسها. «إنه شيء يجِب أن أفعله بنفسي. هذا إن ذهبت من الأساس.» والتفتَتْ لتنظر إليه. «هل عرضك لا يزال قائمًا؟»

«بالتأكيد. بابلو وكارلوس يتحلَّيان بموهبة فطرية في التعامل مع البحر. لقد رأيتُ ذلك بعيني. وأي قبطان سيسعد بضمهما إليه. وعندما يبلغان السن المناسبة، سأشتري لكليهما سفينةً مؤهلة للإبحار.»

«شكرًا لكَ.»

جزَّت آنا على شفتَيها. بدا أخواها صغيرين جدًّا، إلا أنهما يبلغان من العمر ١٣ عامًا تقريبًا. وفي غضون عام، سيصلان إلى السن المناسبة للتطوُّع والانضمام إلى طاقم السفينة.

غمرت آنا موجةٌ من العواطف. سيُبحران بعيدًا عن الجزيرة. وربما لن تراهم مرة أخرى أبدًا.

قال أنطونيو بلُطف: «تحدَّثي مع رودي.»

لم تكُن آنا واثقة من نفسها كي تتحدَّث ولذا أومأت برأسها.

قال لها: «عودي إلى المنزل عندما تنتهين.»

كان أنطونيو يمتلك الآن منزلًا جميلًا به شرفات خشبية تطل على المياه. لقد أخبر آنا بقصة حياته. كان الابن الوحيد لتاجر ثري من جنوب الجزيرة. ترك أنطونيو منزل العائلة بعد مشاجرة ولم يعُد أبدًا. وبوفاة والده، أصبح رجلًا ثريًّا. لقد ورث أملاك والده، التي باعها، واشترى بدلًا من ذلك منزلًا وأرضًا في شمال تينيريفي. ولم يعُد أنطونيو بحاجةٍ إلى الاختباء بعيدًا في أحضان الجبل. وبدلًا من ذلك، تبوَّأ مكانته بصفته أحد القادة الذين أعادوا بناء البلدة.

قال أنطونيو وهو يُربِّت على كتفها: «تحلَّي بالشجاعة.» ثم التفت ليجد الصبيين يستندان إلى سور الكنيسة.

«بابلو وكارلوس، هل أنتما جائعان؟»

قال بابلو: «أنا أتضوَّر جوعًا.»

«ما رأيكما لو تُشاركانني الغداء؟ السيدة سيلفا كانت لطيفة بالقدر الكافي إذ قالت إنها ستأتي.»

تساءل كارلوس: «ماذا عن رودي وآنا؟»

وكزه بابلو في قفصه الصدري بمرفقه. أطرق كارلوس ببصره إلى حذائه كالمعتاد.

قال أنطونيو: «سينضمَّان إلينا في أقرب وقتٍ ممكن. تعاليا. هيا نذهب ونرى ما أعدَّته مُدبرة المنزل لنا.»

عندما رأت آنا أسرتها الصغيرة تسير مبتعدةً في اتجاه الشاطئ، أدركت أنها تتلكأ. شعرت بالتوتر بشأن المحادثات القادمة.

تساءل رودي: «هل ثمة مشكلة؟»

قالت آنا: «هلا سرت معي لدقيقة؟»

أجابها رودي: «حسبما تشائين.»

سارا بخُطًى متمهلة. كان رودي لا يزال يعرج في مشيته، إلا أن الأمر كان أقل وضوحًا. أخذا يقطعان الشوارع الضيقة جيئةً وذهابًا، ليُلقيا بظلال جسديهما على الأرض وهما يقتربان من الشمس تارة ويتبعِدان تارة.

بدأ جرس الكنيسة يدقُّ معلنًا الساعة الثانية عشرة. نظرت آنا إلى الساعة. كان المجلس البلدي في انتظارها. ما كانت لتجعلهم ينتظرون أكثر من ذلك. ما كان ينبغي لها أن تتأخَّر أكثر من ذلك.

أخذت نفسًا عميقًا. «رودي، أتمنَّى أن تعرف أنني أعتبرك أخًا آخر لي.»

شعرت أن وجنتَيه تتخضَّبان بحُمرة الخجل إلى جوارها. أجابها قائلًا: «ولطالما تمنيتُ أن تعتبريني كذلك.»

«لقد عايشنا الكثير من التجارب معًا.»

«أجل.»

كانت آنا تنتقي كلماتها بعناية. وأردفت: «بابلو وكارلوس فتيان صالحان ...»

أومأ رودي برأسه. قائلًا: «الأفضل على الإطلاق.»

«ومع ذلك، إنهما لا يُحبَّان الأرض بقدْر ما أُحبها أنا. أو بقدر ما تُحبها أنت.»

ابتسم رودي ابتسامةً واسعة. وأردف قائلًا: «كلَّا إنهما يفضلان البحر.»

فضحكت آنا وتابعت قولها: «لطالما كان هذا حالهما»، «لم يستطع والدي أن يتفهم هذا الأمر مطلقًا، على الرغم من تقبُّله. لم يُبديا أي اهتمام بزراعة كرمات العنب. ولهذا السبب علَّمَني كل شيء عرفه.»

قال رودي بإخلاص: «أنتِ تعرفين كل شيءٍ يخصُّ الزراعة بقدر ما يعرفه أي رجل. بل وأكثر.»

توقفت آنا عن الحديث لبرهة. كانت هذه هي اللحظة الفاصلة. لم ترغب أن تعرِّض رودي للإحراج. وفي الوقت نفسه، إذا رغب عن القبول بعرضها، فمن الأفضل أن تعرف هذا. من الأفضل أن تعرف عاجلًا وليس آجلًا.

قالت وهي تتطلع إلى المجلس البلدي: «عرض المجلس البلدي عليَّ قطعة أرض لزراعة كرمات العنب فيها. إنهم ينتظرونني للتوقيع على الأوراق اليوم. سأمتلك الأرض بالكامل وبصفتي الشخصية.»

قال رودي بحرص: «لقد سمعتُ ذلك.»

التفتت آنا لتنظر إليه. وقالت: «الفكرة، يا رودي أنني لا يمكنني أن أفعل هذا بمفردي. سأحتاج إلى رئيس للعمال، شخص يساعد في زراعة كرمات العنب، ويشرف على العمال، ويحصد العنب.»

«حسنًا؟»

في تلك اللحظة، ظنت أنها شعرت ببارقة أمل في صوته. شجعها هذا على مواصلة حديثها.

تابعت حديثها قائلة: «ما أودُّ أن أعرفه هو ما إذا كنت ترغب أن تكون ذلك الشخص يا رودي. يجب ألا تتردَّد في الرفض. لا أريدك أن تشعر بأنك مدين لي بشيء.» أدركت آنا أنها تتحدث بسرعةٍ كبيرة جدًّا. «لا أستطيع أن أفكر في أي شخصٍ أفضل منك ليُساعدني في إعادة تأسيس مشروع والدي. ستستمر الأرملة سيلفا في العيش معنا وإدارة المنزل. يمكنك إما أن تبقى في منزل أنطونيو، أو أن تأتي وتعيش في المنزل معي ومع الصبيين، إذا كنتَ ترغب في ذلك، وسيكون هناك ...»

شعرت آنا أن لِسانها انعقد عندما أحاطها رودي بذارعه وعانقها، قبل أن يتراجع إلى الوراء.

صاح قائلًا: «أجل! لا أُصدق أنكِ توقعتِ أن يكون ردي أيَّ شيء بخلاف الموافقة.»

تنفَّسَت آنا الصعداء وهي تقول: «أوه ... أوه، أنا سعيدة للغاية.»

أمال رودي رأسه قليلًا. «ما رأي بابلو وكارلوس؟ هل يُوافقان على هذه الخطة؟»

أومأت آنا برأسها. وأردفت: «أجل. ناقشتُ الأمر معهما أولًا، ثم ناقشتُه مع أنطونيو والأرملة سيلفا. الجميع يرى أنها فكرة رائعة.»

ارتسمت ابتسامة كبيرة على وجه رودي. وأحنى رأسه إليها باحترامٍ شديد. وقال: «في هذه الحالة، آنسة بيريز، يُشرفني أن أقبل عرضك.»

تأبَّطت آنا ذراع رودي وعادا معًا أدراجهما إلى المجلس البلدي. رأت آنا أن اليوم هو بداية المغامرة التالية. فعلى الرغم من كل ما حدث، وكل الخسائر التي تكبَّدتها، والمعاناة التي عايشتها البلدة، شعرت ببارقة أملٍ جديد قد يأتي بها المستقبل.

وفوق البحر، تابعت طيور النورس أسطول الصيد. ظهرت بواكير الزهور الصيفية بألوانها البراقة الوردية والحمراء والصفراء في أصيصات الزرع الموضوع على نوافذ البلدة. وباتجاه الجنوب وفوق رءوسهم، كان الجبل الأسود يقف في هدوء شامخًا وسط السماء الزرقاء.

أو هكذا كان حتى تلك اللحظة.


تليجرام
هنا سور الازبكية
غواص في بحر الكتب
باحثون
محمد خطاب


هنداوي


تليجرام
هنا
سور الأزبكية